قلوب عبير

راكيل ليندسي

المسافرة

www.elromancia.com
مرمورية

قلوب عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. K26

المسافرة

حتى الرحلة الأولى قد تكون رحلة العمر بالنسبة الى فتاة خجول غير مجربة تطلع على العالم، لأول مرة، بأحاسيسها الطرية كالبراعم. أبيا وست تكاد لا تصدق انها باشرت رحلتها، وعندما تعي ما حواليها جيداً وتدرك ان ما يحدث لها ليس حلماً، تكون رحلتها قد تمت بالفعل. ويا لها من رحلة! والهدف الذي بدا بعيد الاحتمال في البداية يتراقص الآن امام عينيها متمثلاً في شخصية جيلز فارو، عالم الفيزياء النووية الذي يمكن ان يوصف بأي شيء الا بأنه عاطفي. يعرف جميع الأجوبة مقدماً ويتمتع بقدرة مذهلة تجعلها تشعر بالذل والاهانة في حضوره حتى وهي تشفق عليه! عداؤه كالصداقة وحبه يوحي بأنه بركة هادئة في ضوء القمر رغم انها بركة غير عادية، يمكن الغرق فيها بسهولة...

لبنان ١٢ ل.ل	الكويت ١ د	اليمن ٤ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ١٢ ل.س	الامارات ١٢ د	تونس ١٥٠٠ د	U.K. £ 150
الأردن ٨٠٠ ف	البحرين ١٥٠٠ د	ليبيا ١ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ١٢ ر	المغرب ٥ د	Greece Drs 200
السعودية ١٢ ر	عمان ١٥٠٠ ر	مصر ١٢٥ ق	Cyprus P 150

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
MAN OF ICE

© RACHEL LINDSAY 1980
© 1984 Harlequin (Cyprus) Ltd.

حقوق التأليف: راكيل ليندسي
جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس والترجمة محفوظة لهارلكوين (قبرص) المحدودة

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

www.elromancia.com

١- طالما حلمت الآنسة ابيا وست برحلة الى الهند تروّح عنها رتابة حياتها البسيطة. وها هي فرصتها تلوح في الأفق!

راحت أبيا وست تقلب الشيك بين يديها، تحاول ان تقرر ما الذي تفعله بمبلغ ألف جنيه. ولم تتردد كثيراً، اذ كانت تعرف بالضبط ما الذي تريد تحقيقه.

كان المنطق يقضي ان تتصرف وفق المثل المأثور: وفر قرشك الابيض ليومك الاسود. لكن روح المغامرة التي ورثتها عن جدتها حدثتها بالاقلاع عن هذه الحكمة. نعم، انها ستنفق كل جنيه ربحته. وليس على أشياء تحتاج اليها مثل الملابس او الأحذية او الحقائب، بل على اجازة رائعة في بلد طالما تاقت الى زيارته: الهند، ارض ملوك المغل الذين قرأت عنهم كل شاردة وواردة. الهند التي أحبت أطباق اطعمتها، وتمتعت برؤية رسومها، والاصغاء الى

موسيقاها، وغرفت من فلسفتها.

طوت الشيك ووضعته في حقيبة يدها، وشكرت الحاسبة الألكترونية التي اختارت اسمها، فربحت هذا المبلغ في اليانصيب.

وكانت صديقتها ميلي توماس صاحت في وجهها عندما سمعتها تفصح عن نواياها:

ـ هل أنت مجنونة لتنفقي كل هذا المبلغ على اجازة؟ لماذا لا تضعين نصف المبلغ في البنك وتحتفظين بما يكفيك للصرف والبذخ؟

اجابتها أبيا:

ـ لن يبقى معي ما يكفي لتغطية نفقات الرحلة الى الهند. ان أرخص رحلة تكلف ٩٥٠ جنيهاً. فيتوفر لدي خمسون جنيهاً لشراء بعض الألبسة.

اجابت ميلي بتذمر:

ـ سيبقى معك بعض المال على الأقل. اما بالنسبة الى الرحلة، ما ان تنتهي حتى يتبخر كل شيء معها.

ردت أبيا:

ـ هذا الرأي لا ينطبق على رحلتي انا. سأعود بذكريات باهرة تظل معي طوال حياتي.

سخرت ميلي:

ـ ذكريات! هذا كل ما تعرفينه في الحياة. عليك ان تعيشي في الحاضر والا انتهيت عانساً منبوذة. واذا كان لا بد من انفاق الدراهم على رحلة، فلماذا لا تذهبين الى جزر البهاما او الى جنوب فرنسا؟

ـ افضل في هذه الحالة البقاء حيث انا. حاولي ان تفهمي مشاعري الحقيقية يا ميلي. ان الذهاب الى الهند حلم طفولتي.

فأمعنت ميلي في الاعتراض:

ـ اذن اذهبي الى اميركا. لماذا تركت أمك وأختيك يذهبن الى كاليفورنيا بدونك؟

ـ لأنني لا أريد ان أهاجر. وفي أي حال، عندما سافرت امي مع

ابنتيها، شعرت بارتياح كبير.

ـ انت تقولين ذلك الآن...

قاطعت ابيا صديقتها:

ـ اعني كل كلمة أقولها. لا يمكنك تصور مدى شقائي وأنا اعيش مع نساء جميلات، فأزداد احساساً ببشاعتي يوماً بعد يوم.

ـ هذه أول مرة تعترفين بذلك.

ـ لم أفكر في الأمر جدياً من قبل. كنت أتمزق حسداً منهن. وزاد شقائي معاملتهن اللطيفة لي. الحمدلله انهن لم يشعرن بغيرتي وعذابي. لا ألومهن، انهن حقاً جميلات، وأنا مجرد فتاة عادية.

قالت ميلي باصرار:

ـ انت لست فتاة عادية. صحيح انك صغيرة القامة. لا تحتاجين الى اكثر من ثياب جديدة وبعض الماكياج. وعليك انفاق دراهمك على هذه الاشياء وليس على رحلة الى الهند.

ـ لا يهمني. اريد الذهاب.

ـ لماذا لا تكتبين الى والدتك لمعرفة رأيها في الموضوع؟

ـ لا ضرورة الى الكتابة. اعرف رأيها في الموضوع... مثل رأيك تماماً. انها تؤمن بتوفير القرش الابيض لليوم الاسود. ربما لأن والدي كان رجلا مبذراً، وعندما توفي خلف وراءه ديوناً طائلة وثلاث فتيات. ورفضت أمي العمل خارج البيت، وتفرغت للاعتناء بنا وتربيتنا. وبدأت تؤجر بعض الغرف وتنظف وتطبخ ليل نهار.

ـ مع ذلك تحسنت الأمور. ثم ما كان أروع تلك اللحظة عندما فازت أختك في مباراة الجمال!

هزت ابيا برأسها:

ـ نعم. وما ان بدأت الأموال تنهال عليها حتى تولتا تدبير المنزل، والانفاق على كل شيء، وحل اي مشكلة طارئة.

قالت ميلي هازئة:

ـ لا توجد مشاكل مع توفر المال. ولماذا تشعرين بعرفان الجميل

تجاههما؟ أديت قسطك، وكنت يدهما اليمنى في كل شيء. ولذلك اعتقد بصحة رأيي، وضرورة ذهابك معهن الى الولايات المتحدة. ربما كنت أصبحت مشهورة وذات ثروة طائلة.

ضحكت ابيا:

- ومن يعيش في عالم الأحلام الآن؟ لا، يا ميلي، أفضل البقاء هنا. الآن تحررت من كل عقد النقص، وأصبحت مستقلة في حياتي.

ابتسمت ميلي:

- وماذا تتوقعين بعد ذلك؟ هل تنتظرين فارس الأحلام؟

تأوهت ابيا:

- ما أصوب رأيك.

- ولكنك لن تجدي فارس الأحلام في الهند.

- ربما لن اجده ابداً. ولذلك أريد انفاق دراهمي بهذه الطريقة.

- انك على الأقل تنفقين دراهمك على نفسك، وليس على عمل خيري.

اضطربت ابيا قليلا:

- بدأت اشعر بعقدة الذنب. ان السيدة بركنز تحتاج الى دراجة للمقعدين...

- اياك ان تفكري في الموضوع. لماذا لا تشكو همومها الى طبيبها وتكف عن استدرار عواطفك؟ لا يا ابيا، اذا كان لا بد من انفاق دراهمك، ففكري في نفسك اولا.

وبعد ثلاثة أيام، نفذت ابيا وصية صديقتها: وقعت شيكاً بمبلغ تسعماية وخمسين استرليني، ودفعته لشركة كينغ، المتخصصة في الرحلات الى الهند.

قال لها موظف الشركة:

- انه قرار لن تندمي على اتخاذه. قمت بالرحلة نفسها منذ ثلاث سنوات، وهي تجربة العمر التي لا تنسى.

كانت ابيا تطير فرحاً عندما غادرت مكتب الشركة. عليها الآن انتظار ستة أسابيع قبل ان تحقق حلمها الساحر، ويا لها من ستة أسابيع طويلة!

ولكن اصبح الحلم حقيقة، وها هي تتوجه الى مطار هيثرو قرب لندن لتستقل الطائرة. لاحظت ان ثمانية اشخاص آخرين انضموا اليها في الرحلة نفسها. بدوا اكبر منها سناً، ويدل مظهرهم على الرخاء، نساء ورجالا.

تمنت ابيا لو انها ارتدت ملابس اكثر اناقة من فستانها الرمادي الصوفي وسترتها الباهتة. ولكنها أنفقت ما تبقى معها من المبلغ على الملابس الصيفية لمعرفتها بارتفاع الحرارة في الهند. علت وجهها مسحة عابرة من الحزن وهي تفكر في قضاء عيد الميلاد بين اناس غرباء وفي بلد غريب، في حين تسكن عائلتها على بعد آلاف الأميال عنها. لاحت في خيالها اشعة الشمس الدافئة، فارتاحت قليلا.

وما معنى الندم والحسرة الآن؟ خاطبت نفسها. لو قررت البقاء في انكلترا، لكانت صرفت العطلة مع صديقتها ميلي وعائلتها، او مع السيدة بركنز، تلك العجوز التي تقطن في الطابق الأول من مكان سكنها. اما الآن فستتناول طبق العيد في بومباي.

طافت على ثغرها ابتسامة الرضا، وارتسم بريق خاطف في عينيها الجميلتين، الواسعتين البريئتين. وهما اجمل ملامح وجهها. اما ما تبقى منها: فكانت قصيرة القامة، نحيلة البنية.

حدقت في يديها النحيلتين ككل شيء فيها. كانت تمسك بكتاب حول الهند، وهو هدية قدمها اليها السيد روجرسن الذي كانت تساعده في ادارة مكتبته القديمة.

لم تكن ابيا قد أكملت دراستها الجامعية، بل فضلت البحث عن عمل للاسهام مع والدتها في نفقات المنزل وتربية اختيها اليافعتين. وحالفها الحظ عندما توسطت مديرة مدرستها لدى ابن عمها السيد روجرسن، وأمنت لها هذه الوظيفة.

وتذكرت كلمات المديرة السيدة وليامز:

- انه رجل قديم مثل مكتبته. ويرفض الاستعانة بأحد مع حاجته الى ذلك.

وكان ان سألتها ابيا:

- وكيف سيغير رأيه، ويقبل بتوظيفي؟

همست السيدة وليامز:

- لأنك تحبين الكتب وتحسنين التصرف. ولديك قدرة التعلم والاكتساب. لن تخسري شيئاً اذا ذهبت لرؤيته.

وذهبت ابيا لرؤية السيد روجرسن، وبدأت بالعمل بعد اسبوع. وبعد مرور أقل من ستة أشهر أصبحت خبيرة ماهرة في بيع الكتب، والاجابة على طلبات الزبائن التي كانت تنهال على المكتبة من مختلف انحاء العالم.

ثم اقترح عليها بعد مضي سنة ان تسجل على حسابه في مدرسة للتخصص في اعمال السكرتارية. وهكذا تستطيع التعامل مع مراسلات الزبائن على نحو اكثر كفاءة، كما قال لها. وحصلت ابيا على شهادة السكرتارية بسرعة عجيبة، وكانت الأولى في صفها.

ورن صوت أمها في داخلها:

- أتمنى لو ان اختيك تتمتعان بنباهتك ومواهبك!

وتذكر ابيا كيف اجابتها بثقة وحزم:

- ان الجمال يعوض عن المهارة والذكاء.

وبعد أشهر معدودة فازت اختاها بلقب مباراة الجمال، ودخلتا عالم الشهرة والأضواء والغنى.

واقترحت اختاها ان تدفعا نفقات دراستها الجامعية، لتحصل على شهادتها في الأدب الانكليزي. ولكن ابيا كانت غارقة في عملها مع صاحب المكتبة العجوز، فرفضت التخلي عنه. وأخذت توفر جزءاً من راتبها بعد ان تحررت من الانفاق على بيت والدتها، ثم ابتاعت شقة صغيرة في حي قريب من مكان عملها، بعد ان رحلت

عائلتها الى اميركا.

غير ان نزعتها التي كانت تتملكها لمساعدة المعوزين والمحتاجين لم تسمح لها بتوفير المزيد في المصروف، او شراء ملابس جديدة باهظة. وهي نزعة طالما انتقدتها صديقتها ميلي، كما كانت تنتقد عملها الممل.

قالت لها قبل سفرها الى الهند بأيام قليلة:

- عندما تعودين يا ابيا سأجعلك تبحثين عن عمل جديد. ما الذي يستهويك في تلك المقبرة؟ عليك ان تشتغلي في شركة كبيرة حيث تتاح لك فرصة الاجتماع بعدد كبير من الناس.

فقالت ابيا معلقة:

- تقصدين عدداً كبيراً من الرجال.

ثم أخبرت صديقتها عن عزم السيد روجرسن باغلاق مكتبته نتيجة مشاريع جديدة في الشارع المجاور، وانه سيتلقى تعويضاً يكفيه لبقية حياته، ولا ينوي فتح عمل جديد وهو في تلك السن المتقدمة. وقال لها ان شركة جديدة ستفتح في الحي نفسه، ولن تجد صعوبة في العمل معها. ولكن ابيا قررت عوض ذلك البحث عن مستقبل جديد. ورأت في رحلتها الى الهند بداية مفيدة.

فكرت ابيا في كل ذلك وهي تستقل الحافلة الى المطار. ثم فتحت حقيبتها وأخرجت كراساً صغيراً حول برنامج الرحلة كانت قرأته عشرات المرات. وتمتمت كلمات المواقع والمدن بلذة وشغف: أغرا، فرانيس، جيبور...

كانت شاردة الذهن، فلم تنتبه الى وصول الحافلة امام المطار، الى ان توقفت وأخذ المسافرون والمسافرات بالترجل. توجهت مع الآخرين الى داخل المطار الذي كان يغص بالناس.

انتظرت دورها بفارغ الصبر تراقب الأطفال يتمسكون بأهداب فساتين الأمهات، والآباء يحاولون التقدم والانتهاء من المعاملات الرسمية، وختم التذاكر.

وأخيراً جاء دورها، فسلمت حقيبتها الى احدى الموظفات، ثم شاهدتها تختفي عن الأنظار، واندفعت الى الوراء متنفسة الصعداء. اصطدمت بحاجز كبير.

استدارت فرأت امامها شاباً طويلا، عريض المنكبين. ولاحظت لتوها ذلك البريق الذهبي في عينيه كأنهما قطعتان من الجمر. لكنه كان عابس الوجه، فاضطربت، الى ان ابتسم قليلا، فهدأ روعها. وتمتم بضع كلمات معتذراً عن اعتراضه طريقها.

ـ لا حاجة الى الاعتذار. كنت في عجلة من أمري.

قالت له بابتسامة عريضة جمدت ملامحه، ورأته يبتعد ويدخل في حديث مع امرأة طويلة هيفاء القامة.

أم وابنها، فكرت ابيا، او ربما جدة وحفيدها، اذ بدت المرأة في عمر متقدم يفوق عمر الوالدة. لكن شبهاً ما كان يجمع بينهما وينبىء عن قرابة دموية: شبه يلوح في تلك الملامح البارزة القاسية، والخطوط التي تمتد حول جانبي الفم. وهي ملامح أضفت على المرأة طابعاً مميزاً، لكنها بدت كالحة. انها جدته بكل تأكيد، استنتجت ابيا، ثم عدلت رأيها عندما وضعت المرأة يدها اليسرى فوق ذراعها، فلم تر أثراً لأي خاتم في اصبعها.

فطنت ابيا الى وقفتها الفضولية، فتوجهت نحو صالون الانتظار استعداداً للاقلاع. وما كادت تخطو بضع خطوات حتى احست بيد غليظة تلمس منكبيها. استدارت فرأت الشاب نفسه الذي اصطدمت به. لكنه كان هذه المرة يحمل لها حقيبتها الصغيرة.

تمتم:

ـ نسيت هذه الحقيبة.

وقبل ان تتمكن من شكره، ادار ظهره ومضى في سبيله. يا له من رجل فظ، قررت ابيا، ثم طردت شبحه من ذهنها وهي تشق طريقها عبر جمهرة من الناس.

وها هي أخيراً تصعد الى الطائرة ذات السجادة الزرقاء، والأرجاء

الفسيحة حتى يخالها المرء سفينة كبيرة. واحست ابيا لتوها كأنها في الهند. رحبت بها مضيفة سمراء البشرة ترتدي لباساً ارجوانياً فيروزياً، وقادتها الى مقعدها.

غمرها فرح خفي وهي تجيل النظر حولها، وسمعت امرأة تجلس بجانبها تخاطبها قائلة:

ـ تمتعي بالمنظر يا عزيزتي، لأن الخدمة لا تضاهي المظاهر.

وعرفت ابيا لتوها انها المرأة عينها التي رأتها تتحدث مع الشاب ذي الوجه العابس منذ لحظات في المطار. أين هو، ولماذا لا يجلس معها؟ وها هي المرأة تتبرع بالجواب:

ـ انت أتيت ضمن الرحلة معنا أليس كذلك؟ اصطدمت بابن اخي عند شباك التذاكر. جاء معي ليودعني.

علقت ابيا:

ـ كان المكان مزدحماً. واعتقد انني اصطدمت بالجميع.

ـ ان المطارات مزدحمة كثيراً هذه الأيام. كانوا في الماضي يعاملوننا بكل احترام. اما الآن فيعتبروننا مثل قطيع الماشية.

ابتسمت ابيا:

ـ لا أسافر كثيراً لألحظ كل هذه الأمور.

ـ أصبحت خبيرة في هذه المسائل. يعاملوننا مثل الحيوانات لا أكثر ولا أقل. يتأخر وقت الاقلاع ولا ندري ما السبب. وعندما نصل وتحط الطائرة بعد طول انتظار، نجلس ساعات قبل استلام حقائبنا، او نقف في صفوف طويلة قبل ختم جوازات سفرنا.

قالت ابيا:

ـ ومع ذلك ما زلت تسافرين باستمرار!

استلقت المرأة في مقعدها بارتياح:

ـ هذه أسرع وسيلة.

سألتها ابيا:

ـ هل تحبين الجلوس قرب النافذة؟

ـ لا شكراً. لا أحب النظر الى الخارج وأنا في الطائرة.

استفهمت ابيا بلهجة صادقة:

ـ هل انت متوترة الأعصاب؟

ـ أكاد أموت خوفاً.

ردت المرأة بصوت حازم وكأنها ترقص طرباً. وبدت ذات خبرة واسعة، وكأن الطائرة جزء من حياتها. تأملت ابيا ملامحها وقوامها جيداً. انها تتجاوز السبعين من عمرها، تمتمت صامتة. ولكنها تفيض حيوية، وتتدفق شجاعة، وتوحي بالثقة والخبرة الطويلة.

أخذت مقاعد الطائرة تمتلىء بالمسافرين. ثم تحركت قليلا، وبدأت بالاقلاع. وما هي الا لحظات معدودة حتى تضاءلت الأرض، ثم شقت الطائرة الغيوم المتلبدة، وحلقت بثبات الى ان بلغت زرقة الفضاء المترامية.

وفي تلك اللحظة فقط تنفست ابيا الصعداء.

الآن بدأت رحلتها الحقيقية.

٢ـ هذا البلد المزدحم بالبشر والعجائب! ابيا لا تشعر بالوحدة هنا مطلقاً. وسألت نفسها غير مصدقة: هل هي حقاً في الهند؟

كانت رحلة عادية بالنسبة الى معظم المسافرين. أما أبيا فشكلت المسافة التي قطعتها الطائرة حتى الآن مصدر خبرات جديدة وممتعة بالنسبة اليها. حطت الطائرة الهائلة في باريس، وجنيف وبيروت حيث ترجّل بعض المسافرين وصعد آخرون مكانهم. وعندما وصلت الطائرة الى بيروت خرجت منها ابيا وهي لا تحس برغبة في النوم، مع ان السيدة التي كانت تجلس بجانبها استسلمت لملاك النوم منذ ساعات.

كانت ابيا مصممة على اقتناص كل لحظة من اجازتها الثمينة، فتجولت في ارجاء المطار المتلألئة بالاضواء في ساعات الصباح الأولى. احتست فنجان قهوة وتناولت قطعة حلوى صغيرة قبل ان

www.elromancia.com

تعود الى طائرتها. ولمحت في طريق عودتها صناديق كبيرة يقوم بنقلها عمال المطار لتحميلها على الطائرة، ثم يعودون بصناديق أخرى فارغة. وادركت انها تحتوي أطعمة متعددة مخصصة للركاب. ولم تتمالك من ابداء دهشتها أمام سرعة انجاز هذا العمل وباتقان باهر.

استقرت في مقعدها ثانية، وراحت تراقب الطائرة في صعودها السريع واختراقها الفضاء الداكن المرصع بالنجوم. ها هي في آخر مرحلة من الرحلة الآن.

ارتفع صوت المرأة قربها:

ـ الم تخلدي الى الراحة أبداً؟

ـ ما استطعت ان انام.

حملقت العجوز بعينيها السوداوين:

ـ ستكونين تعبة عندما تصلين الى دلهي. أو ربّما لن تكوني. انك شابة وفي عز نشاطك. العجائز وحدهن في حاجة الى حفظ طاقتهن.

سألتها ابيا:

ـ هل هذه رحلتك الأولى الى الهند؟

ـ ذهبت اليها منذ سنوات عديدة وقبل ان تحصل على الاستقلال. ومن هنا يمكنك القول انها رحلتي الأولى.

ـ كيف ذلك؟ ربما تغير الناس بعض الشيء، غير ان الأشياء الأساسية والمعالم تبقى كما هي.

وتلقّت هذا الجواب الجاف:

ـ هذا يعتمد على وجهة نظرك وما تودين رؤيته. انا أسافر لرؤية الناس قبل كل شيء. أما انت فيبدو انك مهتمة برؤية الأشياء!

وافقت ابيا لتوها:

ـ عشقت الاشياء الهندية منذ ان كنت طفلة صغيرة. عشقت الرسوم والتماثيل والهندسة الهندية.

ـ اذن ستتابعين برنامج الرحلة كله؟

ـ نعم. وانت؟

ـ آمل ذلك. ولكن لا استطيع اعطاء جواب حازم. كان جيلز، ابن اخي، ضد الرحلة وبشدة هائلة. يعتقد انني تقدمت في السن كثيراً لأطوف حول العالم. واذا ما أخذنا العمر كمعيار، فهو على حق على ما أظن.

ردت ابيا:

ـ ان القيام برحلة مثل هذه يتوقف على كيفية شعورك، وليس على عمرك.

ـ اشعر بحيوية متدفقة، ولا تنقصني القوة أو الرغبة.

كان صوت العجوز النابض بالحياة أفضل شهادة على قولها. ادركت ابيا انها ليست امرأة عجوزاً تكتفي بالجلوس قرب موقد النار وتنتظر نهاية عمرها، بل كانت شعلة متوقدة. وبدا واضحاً ان ابن اخيها فاته كل ذلك.

سألتها ابيا:

ـ هل انت من لندن؟

ـ لا. من مقاطعة هامبشير. انت من لندن كما اعتقد؟

ـ نعم. أسكن في حي فيكتوريا.

ووجدت ابيا نفسها تبوح بكل شيء عن حياتها أمام اسئلة العجوز البارعة. حدثتها عن عملها مع السيد روجرسن، والجائزة المالية المفاجئة التي قادتها الى هذه الرحلة.

وأضافت بعفوية:

ـ ارتأت صديقة لي ان انفق هذه الدراهم على تجميل مظهري. ولكن حياتي مع شقيقتيّ بيلندا وديانا اقنعتني باستحالة ذلك.

ـ لا بد ان اختيك بالغتا الجمال، اذا كنت تعتبرين نفسك مجرد فتاة عادية. ان عينيك البنفسجيتين و... (قطعت العجوز كلامها) لا حاجة الى الاستفاضة. ان الثقة بالنفس لا تنبع الا من داخل المرء، وليس من كلام الناس. كم عمرك يا ابنتي؟

انفرجت اسارير ابيا قليلاً:

ـ انا لست صغيرة الى الحد الذي تظنين. عمري اربعة وعشرون. أبدو أصغر سناً لقامتي القصيرة والنحيلة.

أجابتها العجوز:

ـ لا ينقصك أي شيء يا عزيزتي. والآن ما هو اسمك الأول؟ لا استطيع ان اناديك الأنسة وست طوال الوقت، وانت في هذا العمر.

ـ اسمي ابيا أو ابيغيل.

ـ أنا ماتيلدا بيتمان، ويسعدني لقاؤك جداً. ليتنا تعرفنا اليك في المطار. كان جيلز بدل رأيه لو عرف انني سأسافر مع رفيقة ممتعة مثلك.

لم توافق ابيا على هذا الرأي وهي تتذكر الأسلوب العدائي الذي عاملها به، ولكنها احجمت عن قول أي شيء.

استطردت الأنسة بيتمان:

ـ أتوق الى رؤية الهند عبر عينيك البريئتين. قمت برحلتي الأولى منذ زمن بعيد فلا أكاد أذكر أي أمر عنها.

قالت ابيا:

ـ لن أنسى رحلتي الاولى ابداً. وستكون رحلتي الأخيرة أيضاً. سأذهب الى مدينة بورتموث في بريطانيا السنة المقبلة.

ـ ما هذا التشاؤم والانقباض واليأس والاستسلام للقضاء والقدر؟

خالت ابيا ان فلسفة المرأة العجوز فلسفة خاصة بها، أما هي فلا يمكن لها الايمان بها. ان القضاء والقدر قوة هائلة تعتقد بوجودها. غيرت الموضوع بلباقة. واخذتا تتجاذبان اطراف الحديث الى ان غطت الأنسة بيتمان في نوم عميق. وغلب ابيا النعاس أيضاً، والطائرة تهم بالهبوط نحو المطار.

حطت الطائرة على المدرج، وأخذ الركاب بعد دقائق بالخروج منها. وما ان انهت ابيا الاجراءات الرسمية حتى تبين لها العدد الحقيقي لمجموعة الركاب الذين اتوا معها في الرحلة الخاصة. كانوا

عشرين مسافراً ومسافرة، وادركت انها تصغرهم جميعهم سنا.

قدّم رجل هندي سمين نفسه كممثل شركة السياحة وقاد المجموعة الى الحافلة التي ستقلها الى المدينة.

ـ ان السيد شيران، الدليل السياحي، سيلتقي بكم جميعاً بعد الظهر، اما في الوقت الحاضر، فسأتولى الردّ على أية استعلامات بنفسي. وكما تعلمون، يمكنكم قضاء بقية اليوم كما تشاؤون.

قالت احدى النساء:

ـ أريد شراء بعض الحاجات. ما قطعت كل هذه المسافة لأقضي يومي بدون فعل أي شيء.

تجاهلت ابيا كل هذه الاحاديث، وراحت تنقل انظارها في المشاهد الريفية ذات السهول المترامية. بدت لها الأرض خصبة، ومقسمة الى قطع صغيرة، وكأنها جزء من الريف الانكليزي. لكنها لاحظت قلة العاملين في الأرض، ما عدا بعض النساء، والجواميس التي تجر محراثاً خشبياً طويلاً. لم تعبر الحافلة وسط القرى لتتبين معالم الحياة فيها، بل كانت تلمح بين الفينة والأخرى مجموعة من الأكواخ، مبنية من الطين أو العشب اليابس.

عندما اقتربوا من المدينة لم تتغير المناظر الطبيعية كثيراً، أو حتى الطريق نفسها، حيث لا توجد أرصفة تفصل المارة عن السيارات والدراجات. ووجد سائق الحافلة نفسه يخفف سرعته أكثر من مرة ليفسح المجال أمام البقرات الهائمة وسط الشارع. بقرات عجاف لا أحد يقترب منها، الى ان تتضور جوعاً وتلفظ أنفاسها، فيحملونها في الشاحنات الى أماكن بعيدة. تلك ناحية شغلت بالها حول الهند، وستكرهها من كل قلبها.

وأخيراً توقفت الحافلة أمام فندق أوبروي ذي المدخل الزجاجي الذي ترجل امامه معظم الركاب، بمن فيهم الأنسة بيتمان. وتوجه من تبقى منهم الى فندق نورندا الأكثر تواضعاً، وعندها فقط ادركت ابيا ان مجموعتها صغيرة جداً. وجدت غرفتها بسيطة للغاية، ولكنها

نظيفة، وتحتوي على حمام عملي يفيض بالماء الحار.

بدت غرفة الطعام بالغة التواضع، والكراسي لا يغطيها شيء مثل الطاولات الخشبية. مع ذلك تمتعت بوجبة هندية شهية، بكل توابلها وأفاويهها.

انتهت ابيا من طعام الغداء، وفكت نصف حقائبها. ثم عقدت العزم على التنزه في الخارج عوض البقاء ضمن جدران باهتة. لا يجوز لمن اجتاز نصف العالم ان يأوي الى الفراش فور وصوله، حدثت نفسها. بدلت ملابسها، وغادرت الفندق لتتجول في الشوارع. ولشد ما كانت دهشتها عندما لاحظت انعدام حركة السير، ما عدا بعض العربات القديمة التي أكل الدهر عليها وشرب. اما الدراجات فحدث عنها ولا حرج. كانت تنتشر في كل مكان، وبدت انها وسيلة النقل الأساسية، بالاضافة الى عدد محدود من الباصات المحشوة بالبشر كأنها علب سردين. ومرت أمام حوانيت صغيرة مكونة من غرفة واحدة، يتربع في داخلها اصحابها تحيط بهم شتى انواع البضائع من اقمشة حريرية وقطنية ومعادن وزجاج وتوابل.

توقفت ابيا امام حانوت لتتفحص الجواهر المعروضة في داخله. ورغم بخس الاسعار واغراء الصناعة المتقنة، أحجمت عن شراء اي شيء التزاماً منها بوعد قطعته على نفسها. خطت خطوتين الى الامام، واذا بها محاطة بجمهرة من الشحاذين يمدون ايديهم توسلاً للحصول على حفنة من النقود. غلبتها مشاعرها، فاخرجت جزدانها الصغير، ووزعت عليهم كل القطع المعدنية التي بحوزتها. وأحست لتوها وكأن الاف العقبان الجائعة تنقض عليها، واختلطت الأصوات المتوسلة المستجدية:

ـ صدقة. صدقة.

صاحت:

ـ أعطيتكم كل ما معي من دراهم. أرجوكم دعوني اذهب.

استدارت لتمضي في سبيلها، فتحلق حولها مزيد من

الشحاذين، وذهبت محاولاتها في التملص منهم فاخذت تدفعهم عنها بخشونة الى ان تمكنت ان احظى برفقتك ضغطت يديها فوق أذنيها واطلقت ساقيها للريح من عمرك بطبيعة فندقها. وظل بعضهم يتعقبها باصرار عجيب

كم كانت غبطتها عظيمة وهي تدخل ردهة

تلقاها صاحب الفندق بابتسامة عارمة، وهو يلكن الأنسة بيتمان الشحاذين. تقدم منها قائلاً بصوت رخيم:

ـ انصحك ان تكوني أكثر صرامة. اياك ان مري. كل ما أردت الشحاذين، والا تعقبوك باستمرار، وبالمئات سرف وقتك مع اي

أجابت:

ـ أعرف ذلك. ولكن من الصعب ان أرفضت الصعداء عندما بينهم بنت صغيرة. وهي تخلع ملابسها

أجاب: الت نفسها. طافت

ـ عليك ان تكوني صارمة. أفّاً لهذه الحة لملاك النوم.

تتحدث عن منع الشحاذة بدون نتيجة. الى الحمام لتنعم بمائه لم ترق الفكرة لابيا. الأفضل ان تعالج صول الحافلة حوالى وتلك مشكلة شائكة لا تستطيع الهند معالجتها في جولة عامة.

توجهت نحو السلم، ووضعت قدمها على لم تفقه أبيا قيمتها كما هرع صاحب الفندق نحوها حاملاً قصاصة التي تمثل أروع مثال قال: ها بعض المعلومات.

ـ تلقيت مخابرة تلفونية. تتمنى الأنسة بيتمان المعششة في الجدران معها في فندق الاوبروي. يمكنني استدعاءكِ الصغيرة التي تبيع الطريق تبعد كثيراً من هنا.

سألته: سريعة في شرح تاريخ

ـ وهل التاكسيات باهظة هنا؟ حت تطوف وحيدة في

استغرب:

ـ كل شيء بخس الثمن هنا، وخاصة ثمينة المرصعة تعرضت

لنهب الجنود البريطانيين بعد حركة التمرد الهندي في القرن التاسع عشر. هنا في هذا المكان كان السلطان المغلي يعقد مجالسه العامة، أما في الردهة المجاورة فكان يقيم مجالسه الخاصة. وبدت الردهة التي رصعتها ذات يوم بلاطات الرخام البراق باهتة بعض الشيء. ولم تدرك ابيا عظمة المكان الحقيقية حتى وصلت الى المقصورات وحماماتها الرائعة، وكأنها صفحة من صفحات الف ليلة وليلة.

ويصعب على المرء تصور هذا الصرح الضخم كملاذ عملي بقي اصحابه ضد مناخ مدينة دلهي المفرط، القارس البرد في ساعات الفجر، وليالي الشتاء، والبالغ الحرارة اثناء فصل الصيف. لكن البراعة البشرية تغلبت على الحر عبر بناء أقنية مياه متقنة، وتجنبت البرد بستار الرخام وحجاب الذهب والفضة.

غرقت ابيا في افكارها حول القلعة وتاريخها، فنسيت نفسها لبضع لحظات. وها هو الدليل السياحي يقترب منها هاتفاً:

ـ عليك ان تظلي مع المجموعة من فضلك. لا نريدك ان تضيعي هنا.

ـ ولكن احب ان أراقب الأشياء عن كثب وأدرسها بدقة...

ـ اذن يمكنك العودة غداً وحدك.

هزت برأسها راضخة وتبعته لتنضم الى المجموعة. وقالت لها الآنسة بيتمان وهما تسيران:

ـ سأعود في وقت لاحق مع دليل آخر. ويسعدني كثيراً وجودك معي.

اجابت ابيا:

ـ انها دعوة مغرية، وأقبل بشرط ان أساهم بحصتي في النفقات.

قالت العجوز وهما تتوجهان الى الحافلة:

ـ ما هذا الهراء؟ سأسر كثيراً برفقتك. ولولا ابن اختي لنزلت معك في فندقك. أصرّ عليّ لأراعي سني وأسافر في الدرجة الاولى كما ترين.

ارتأت ابيا الاعتصام بالصمت. اخذ فضولها يزداد حول هذه العجوز، اذ ان تصرفاتها بدت متناقضة الى حد يدعو الى الغرابة.

كانت الآنسة بيتمان تنزل في فندق الاوبروي الفخم، لكن ملابسها تكاد تكون رثة بالية. ومع ان جزدانها مصنوع من جلد التماسيح فهو في حالة رديئة للغاية. هل ابتسم لها الحظ في الماضي ثم ساءت أحوالها ام هل كانت دائماً فقيرة، وتعتمد على اقربائها الاغنياء مثل ابن اخيها للاعتناء بها؟ خالتها ابيا امرأة ذات أنفة لا تقبل الصدقة باستمرار، مهما لطفها الحب والحنان. قطعت العجوز حبل افكارها:

ـ من المؤسف ان جيلز رفض المجيء في هذه الرحلة. يقول انه رأى كل ما يود رؤيته من الهند.

ردت ابيا بلهجة صادقة:

ـ لا استطيع ان اتصور انضمامه الى رحلة كهذه. لا يبدو عليه انه يتحمل ازعاج الدليل السياحي.

ارتسمت ابتسامة خاطفة على وجه العجوز:

ـ انك على حق. لكن جيلز لم يأت الى الهند كسائح في السابق. جاء ليعمل.

ـ ليعمل!

ـ نعم. وهو لا يزال هنا. ذهب الى لندن لبضعة أيام لرؤية أحد الوزراء. وهو يسكن في الهند منذ ثلاثة أعوام. انه في بومباي الآن، لكنه تجول في الولايات الشمالية منذ عامين. ويعتبر من كبار الخبراء في الهندسة النووية، ويشرف في الوقت الحاضر على بناء مفاعل نووي.

ابدت ابيا اهتماماً خاصاً وهي تصغي الى العجوز بيتمان التي استمرت في الاسهاب حول تألق ابن اخيها في عالم الأعمال. تأكد لها انه دفع بنفسه تكاليف رحلتها، اذ انها كشفت ايضاً كيف اصبح يتيماً وهو في الثالثة عشرة، ورعايتها له منذ ذلك الحين.

استطردت العجوز:

- لم أكن أعرف شيئاً عن الاولاد، ولم أبال بأي شيء يتعلق بهم. غير ان وجود جيلز معي في بيتي فتح أمامي عالماً جديداً. . . كان ولداً رائعاً.

وعبثاً حاولت أبيا تصور ذلك الرجل المتجهم الذي التقته في مطار هيثرو كطفل رائع. استرسلت العجوز في ذكرياتها:

- كان ولداً موهوباً جداً. يحب الدعابة وممارسة شتى الالاعيب والخدع. واذكر انه، وهو في مدرسة ايتون الشهيرة، سقط من شجرة كبيرة، وأصيب برجة دماغية. وعندما استعاد وعيه تظاهر بعدم قدرته على التحدث بالانكليزية. وخدع الجميع لمدة أسبوع وهو لا يتكلم سوى اللغة اللاتينية.

بلعت ابيا ريقها. تحول اهتمامها بهذا الرجل الى نوع من الرهبة والتوجس. حمدت الله انه لم يرافق عمته في هذه الرحلة. ما هي الاحاديث التي تروق له، وكيف يقضي وقته؟ كيف كانت ستجذب انتباه رجل تحدث اللاتينية بطلاقة وهو في الرابعة عشرة وخدع رؤساءه لمدة أسبوع كامل؟

قالت الآنسة بيتمان:

- سأرى جيلز في بومباي طبعاً. أنوي قضاء شهر معه، او اكثر اذا كان كل شيء على ما يرام.

سألتها ابيا:

- وهل ابن اخيك متزوج؟

- تزوج عمله فقط.

قهقهت ابيا طرباً، وكأنها تنتقم منه قبل ان تفوتها فرصة ثانية.

٣ - جلست قرب النافذة ودفنت رأسها بين يديها. وارتسمت في مخيلتها صورة ذلك الرجل الغامض الذي يتطاير الشرر من عينيه!

رغم اسهابها في الحديث عن ابن اخيها، لم تذكر العجوز اي شيء عن نفسها، وظلت ابيا تجهل ماضيها الغامض. كل ما عرفته عنها انها تمجد جيلز، وهو بدوره مولع بها الى حد كبير. وهي امرأة سهلة لا يصعب على المرء الاعجاب بها، لأنها ذكية، مرحة، ولطيفة، وان كانت تتصرف على نحو مفاجيء في بعض الأحيان. بذلت جهدها لاضفاء المتعة على اقامة ابيا في دلهي، مصرة على مصاحبتها كل مساء، واستئجار سيارة تاكسي خاصة لنقلها الى الأمكنة التي احبتها خلال الجولة السريعة. ولم تدع ابيا تدفع اي جزء من التكاليف، وظنت ان جيلز يتحمل كل هذه النفقات بكرمه وسماحته.

www.elromancia.com

وعندما وصلوا الى فندق كلارك شيراز في مدينة اغرا بواسطة حافلة مبردة، توزعت المجموعة الى حلقات صغيرة.

علقت الآنسة بيتمان:

- لا ادري لماذا يأتون الى هذه المدينة، ومعظمهم لا يريد اكثر من شراء بعض البضائع، والقاء نظرة خاطفة على الأبنية الرائعة؟

قالت ابيا:

- لا الومهم على شراء بعض الأشياء. ان المجوهرات والأقمشة المطرزة مغرية جداً.

- لم الحظ رغبتك في شراء اي شيء؟

- لا احتاج الى اشياء كهذه. ان حياتي بسيطة للغاية.

- اذن عليك ان تشتري ما يحلو لك. وأنت فتاة جميلة.

هزت ابيا رأسها، ودفعت الى الوراء ضفائر شعرها الذهبية:

- يمكنك ان تخلعي علي اية صفة سوى صفة الجمال. قولي اني ذكية، خفيفة الظل، بارعة، أو اي شيء آخر.

ردت الآنسة بيتمان:

- اذن انت لست ذكية أو بارعة اذا كنت تقولين اشياء كهذه. انت جميلة يا عزيزتي. واذا كنت ترفضين وصفك بأنك جميلة، فانت فاتنة ومحببة الى النفس.

- ولكن ماذا عن قامتي؟

- ما بال قامتك؟

- انها قصيرة جداً. ولم يسبق لفتاة طولها خمسة اقدام ان ربحت مسابقة جمال.

تابعت الآنسة بيتمان:

- لا تجعلي مقاييسك مثل مقاييس هذه الأيام التافهة. اظن ان اختيك الأنانيتين سلبتاك ثقتك بنفسك؟

اجابت ابيا لتوها:

- لم تكونا انانيتين اطلاقاً. وأنا لا افتقر الى الثقة بالنفس.

- ربما ليس على الصعيد الفكري. ولكن عواطفك لا تزال في مرحلة الطفولة.

- لا يجوز لوم اختيّ على ذلك.

قالت الآنسة بيتمان:

- انا الومهما. كان عليهما مراعاة شعورك.

ردت ابيا:

- حاولتا باستمرار. غير ان اساليب التجميل مثل الأهداب الاصطناعية والأثواب المثيرة لم تلائمني، وعندما لاحظتا...

- اصيبتا باليأس وكأن الأمر لا يعنيهما.

قالت ابيا بلهجة الدفاع:

- كانتا منهمكتين في العمل.

لم تتمكن الآنسة بيتمان من الاجابة اذ ناداهما الدليل لركوب احدى سيارات الأجرة المنتظرة لتقل المجموعة الى صرح تاج محل.

هتف الدليل:

- سنرى الصرح غداً في وضح النهار. غير ان ابهى منظر لتاج محل هو تحت ضوء القمر.

كانت كلماته صادقة. ادركت ابيا وهي تعبر البوابة الرئيسية الشامخة، وتكحل نظرها للمرة الأولى بهذا الصرح الرخامي، انها لن ترى مثيلاً له في كل حياتها، وكان الضباب الشفاف يرتفع من النهر المترقرق وراء الصرح، ويتجمع بخفة فوقه، حتى يخال المرء ان المبنى يعوم فوق بحر سرمدي. وبدت السماء داكنة يختبىء فيها القمر وراء غيمات تلقي بظلالها فوق القبة الباهرة، لكأن الصرح بأكمله سفينة فضائية عملاقة توشك ان تقلع صوب الفضاء.

اقترح الدليل الاقتراب اكثر من المبنى، وقاد المجموعة فوق الحديقة الطويلة مروراً بالحوض المثلث الضيق الذي ينعكس في مياهه تاج محل بكل روعته وتنوعه.

مضوا الى الضريح عبر القنطرة العالية المؤدية اليه، ثم الى الجناح

الشرقي حيث ترتفع الأبراج الرخامية السامقة التي تنتصب على زوايا الضريح. يا لخيال الانسان المترامي، وقدرته العجيبة في تشييد معالم خالدة كهذه. غمرت ابيا موجة من الحزن والتواضع وهي تفكر في آلاف العبيد الذين عملوا وماتوا هنا من اجل نصب شكل رخامي تعبيراً عن وفاء سلطان مغلي لزوجته المتوفية.

وكانت كلما حدقت في هذا الصرح تتضاءل في ذهنها اهمية كل الوقائع التي قرأتها عنه في الكتب. كان تاج محل جاثماً هناك يتحدى الزمن، وينطق بألف لغة ولغة، وكأنه يعلن خلوده الدائم، ويندمج في احاسيسها وأهوائها ورغباتها.

اشاحت بنظرها الى البعيد. كان هذا الصرح كل ما توقعته وما لم تتوقعه. وقفت عاجزة عن وصف مشاعرها الداخلية. كيف يستطيع المرء وصف الألوان لرجل اصيب بالعمى منذ ولادته، او الألحان الموسيقية لمن ولد اصم؟

بدأ افراد المجموعة يتجولون في كل اتجاه. لكن ابيا ورفيقتها العجوز ظلتا جالستين على السور الرخامي قرب الضريح. لمست ابيا بفطرتها ان الآنسة بيتمان تراودها افكار مماثلة، فاجتاحتها مشاعر من التعاطف المرهف. اطلقت تنهيدة مكبوتة، فترامت الى مسامع العجوز حيث نظرت اليها مؤنبة:

- اياك والدموع يا ابيا.

- ان ذرف الدمع لا يفي جماله.

- ان السلطان حول دموعه الى رخام وبنى هذا الضريح. ولم يدر في باله اي شيء آخر بعد ذلك.

تنهدت ابيا ثانية:

- لا بد انه احبها كثيراً ليفكر في بناء هذا الصرح لها.

- انا شخصياً اكره هذه الأشياء.

فغرت ابيا فاها تعجباً:

- لا يعجبك تاج محل؟

- لا. لم اقصد ذلك. لكن اقامة هيكل للحب هو هدر للطاقة والعاطفة. مهما كان المرء يحب شخصاً آخر، عليه ان يسلم بوفاته، ويتابع حياته بعزم جديد. علينا ان نفكر في المستقبل وليس في الماضي.

وعطست العجوز بحدة ثم تابعت:

- اعتقد انك تعتبريني مجرد عجوز ثرثارة.

- لا. ابداً.

وعطست العجوز مرة اخرى، فانتصبت واقفة:

- يبدو ان الجو بارد قليلاً. سآخذ سيارة اجرة الى الفندق. ولكن ابقي انت هنا. سأراك غداً حيث تمتع انظارنا بمزيد من المشاهد.

ولم يخب ظن ابيا. اذ خلبت لبها مدينة اغرا بمناظرها وجلبتها، وكل القصص الطريفة التي جرت امامها في الشوارع والهياكل والمقاهي. وبدا تاج محل في وضح النهار رائعاً باهراً مثل روعته في ضوء القمر الفضي.

كان الليل يرخي سدوله عندما عادتا الى فندق كلارك شيراز حيث تقام حفلة رقص هندي في الحديقة بعد تناول العشاء.

لكن قبل انتهاء الحفلة قالت لها العجوز:

- اشعر ببعض الارهاق. سأتناول وجبتي في غرفتي.

تمعنت ابيا في ملامحها فلمحت احراراً بارزاً فوق بشرتها الشاحبة. انهت طعامها بسرعة، وودعت افراد المجموعة متوجهة الى غرفة العجوز مباشرة للاستفسار عن صحتها.

بدت الآنسة بيتمان في ثياب النوم القطنية الرقيقة اكبر سناً مما تبدو عليه في اثوابها الحريرية ذات الطراز القديم. كان صوتها ابح، وانتابتها نوبة من السعال وهي ترحب بأبيا ففقدت قدرتها على الكلام للحظات معدودة.

اقترحت ابيا:

- الا تظنين ان من الأفضل لك استدعاء الطبيب؟

- ما الفائدة؟ انا معرضة دائماً للاصابة بالالتهاب الشعبي والانفلونزا. ارتكبت خطأ لا يغتفر بجلوسي على ذلك السور الرخامي ليلة امس.

- هل لديك بعض الأدوية هنا؟

- تناولت بعض الأقراص منذ فترة قصيرة. يمكنك جلب قنينة دواء السعال من الحمام.

نزلت ابيا عند رغبتها، ولشد ما كانت دهشتها وهي ترى عدد قناني الدواء المصفوفة حول المغسلة. قالت العجوز بعد نوبة سعال حادة:

- لا اظن انني سأتجول غداً مع المجموعة. زرت معالم سيكري عندما كنت هنا المرة الماضية، وهي حتماً لا تزال كما هي.

- يقال ان معالمها فائقة الجمال ومحفوظة على نحو متقن.

- لكنها آثار ميتة لا حياة فيها مثل مدينة بومبي في ايطاليا. كانت منذ اربعمائة سنة المقر الرئيسي لبلاط السلطان، ولكن بعد وفاة السلطان اكبر الشهير تدهور وضعها كثيراً. ولكن من المفيد التمتع بما تبقى منها.

قالت ابيا بلهجة حماسية اضحكت العجوز:

- كل شيء في الهند يستحق الزيارة والرؤية.

- كلامك يذكرني بروعة الصبا والفتوة.

- ومن الرائع ايضاً ان يكون الانسان فتي القلب مثلك.

- شكراً يا عزيزتي على كلماتك اللطيفة. تعالي لرؤيتي حالما تعودين غداً.

نهضت ابيا باكراً، وجلست تنتظر وصول الحافلة الصغيرة. لكن ضميرها كان يؤنبها ويدفعها لالقاء نظرة على العجوز قبل مغادرتها المكان. هرعت مسرعة الى غرفة المرأة.

ادركت لتوها ان العجوز تعاني من شيء يتجاوز الزكام العادي. بدا وجهها منتفخاً، وعيناها محمرتين. كما خالتها غير قادرة على التركيز لمدة طويلة، وأخذت تتمتم كلمات غير مفهومة وهي تشير

على ابيا بالذهاب وركوب الحافلة مع الآخرين. وعندئذ قررت ابيا استدعاء الطبيب.

اخبرها موظف الاستقبال عن وجود طبيب يزور نزيلاً آخر، وسينتهي من فحصه خلال نصف ساعة. وأضاف الموظف:

- ان دليل الجولة في انتظارك.

اجابت ابيا وهي تعارك خيبة املها:

- ليذهب بدوني. لن اترك الآنسة بيتمان وحدها.

- يمكننا تكليف خادم للاهتمام بها.

كادت ابيا تبدي موافقتها، غير ان ضميرها ردعها، فشكرته ورفضت اقتراحه.

ما ان اقلعت الحافلة لتقل المجموعة في جولة سياحية جديدة حتى وصل الطبيب. كان في خريف العمر مائلاً الى السمنة، يلف جسمه بسترة هندية ضيقة مزررة حتى عنقه.

فحص العجوز فحصاً شاملاً، وعلت وجهه امارات التجهم مما اخاف ابيا، وادخل الرعب الى قلبها. اعلن اخيراً:

- انها نزلة صدرية حادة. سأصف لها بعض المضادات، ولكن لا اتوقع اية نتائج ايجابية قبل مرور اربع وعشرين ساعة.

سألته ابيا:

- هل من الضروري نقلها الى المستشفى؟

- لا ضرورة لذلك الآن. لن اتخذ القرار النهائي حتى اراها ثانية عشية اليوم. وأثناء ذلك سأرسل اليك الأدوية (ثم حملق في وجهها مستفسراً) هل انت احدى قريباتها؟

- مجرد صديقة. سأبقى هنا طوال اليوم.

هز رأسه علامة الرضا، وغادر الغرفة. جلست ابيا على كرسي بجانب السرير لتتصفح كتاباً حول المدينة الصخرية القديمة التي فاتتها زيارتها.

عاد الطبيب في وقت متأخر من المساء حيث كانت صحة العجوز

ازدادت سوءاً. لاحظت ابيا انها تتنفس بصعوبة، وتتمتم بعض الكلمات حول اناس وأمكنة لا تعرف عنها شيئاً، أو تغط في نوم عميق، مرسلة شخيراً متواصلاً.

اكد لها الطبيب:

- لا حاجة الى القلق. ستتحسن حالتها في الصباح.

لم تكن ابيا واثقة من كلامه المطمئن وتزايدت مخاوفها مع اقتراب المساء حيث غرقت العجوز في هذيانها مرة اخرى:

- ما هذا يا جيلز؟ لا تعاملني بهذا الاسلوب فأنا لست طفلة! طفت العالم مرتين قبل ان تولد، ولا انوي قضاء بقية حياتي في كرسي للمقعدين. قد اكون طاعنة في السن، ولكنني لست خرفة ولا اعاني من مرض عضال.

ابتسمت ابيا. ان الآنسة بيتمان هي اياها حتى في هذيانها. فكرت ان جيلز فقد اعصابه اكثر من مرة معها. ومع انها لمحته لبرهة خاطفة في مطار هيثرو، لمست لتوها انه رجل ذو ارادة حديدية. يبدو انه يتمتع بشخصية مسيطرة، وهو انطباع اكدته احاديث عمته حوله.

خطت ابيا نحو السرير بهدوء. لاحظت ان الآنسة بيتمان ازدادت انكماشاً في فراشها، وأدركت انها لن تتعافى في وقت قريب. واذا كان الوضع كذلك، ما هي ردة فعل ابن اخيها لعدم اطلاعه على مرض عمته، وخاصة وهو في الهند؟

ترددت قليلاً قبل ان تفتح حقيبة العجوز بحثاً عن مفكرة أو دفتر عناوين. وأخيراً عثرت على مفكرة مجلدة قرأت فيها عنوان جيلز فارو ورقم تلفونه في بومباي.

طلبت مخابرة هاتفية لتوها، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً تنتظر جواباً بفارغ الصبر. وأخيراً رن جرس الهاتف فزالت كل مخاوفها وشكوكها وهي تسمع صوت جيلز على الخط، واثقاً وحاداً. قالت بسرعة:

- انت لا تعرفني. انا مع عمتك ضمن المجموعة السياحية. و... و... واصطدمت بك في مطار هيثرو...

قاطعها محتداً:

- ما الذي الم بعمتي؟

استاءت من نفسها وسوء تصرفها، اذ ماذا يهمه من هي أو اين التقاها؟

اخبرته ابيا عن وضع عمته بعجلة:

- يقول الطبيب انه لا لزوم للقلق ولكن...

- ولكنك قلقة الى حد جعلك تتصلين بي؟

قالت ابيا بحزم:

- نعم. لم اكن لأتصل بك لو كنت في انكلترا، اما...

- سأركب اول طائرة. واعتقد انني سأصل صباح غد.

فاجأتها سرعة قراره. قالت:

- لم اتوقع منك المجيء الى هنا، سيد فارو.

- لماذا اتصلت بي اذن؟

- لأضعك في الصورة. ولكن اذا...

- حسناً. هذا ما قمت به الآن، واتركي لي القرار من فضلك.

وأقفل الخط بعد ان شكرها، فأعادت ابيا السماعة، يخالجها ارتياح ممزوج بالتوتر. يا له من رجل مزعج! مع ذلك كانت مغتبطة لاتصالها به، اذ لم تعد تتحمل مسؤولية مرض الآنسة بيتمان وحدها. واذا ما حدث اي طارىء بين الليلة وصباح الغد عندما يصل ابن اخيها، لن يلومها احد أو يتهمها بالاهمال.

رفعت سماعة الهاتف مرة اخرى وطلبت وجبة عشاء في غرفتها، ثم مضت نحو النافذة وحدقت في الظلام بحزن يشوبه الحنان. قضت يوماً مرهقاً ومثبطاً للعزيمة. هل صرف اجازة يعني الجلوس ساعات لمراقبة عجوز في حالة من الغيبوبة؟

تثاءبت وتمطت، متمنية حضور جيلز فارو ليتولى زمام الأمور

مكانها. انها تتوق الآن الى التخلي عن هذه المسؤولية الصعبة!

جلست قرب النافذة مطلقة زفرة حزن صامتة، ودفنت رأسها في راحتيها. وارتسمت في مخيلتها صورة ذلك الرجل الغامض الذي يتطاير الشرر من عينيه.

٤ ـ ما اهمية مشاهدة بعض الآثار القديمة مقابل رعاية امرأة عجوز طيبة وادخال الطمأنينة الى قلبها؟ ومع ذلك، تشعر أبيا بوحشة قاتلة. . .

غفت ابيا في المقعد الوثير قرب سرير الآنسة بيتمان ملء جفونها. ولم تستيقظ الى ان تسللت خيوط الفجر عبر النافذة.

استوت في مكانها، وألقت نظرة ملهوفة على السرير. كانت العجوز تغط في نوم عميق، وبدا وجهها اقل احمراراً، وتنفسها اكثر انتظاماً.

تجهم وجه ابيا. لو انتظرت حتى هذا الصباح قبل الاتصال بجيلز فارو، لكانت بدلت رأيها. ولكن فات الأوان الآن. انه في طريقه الى الفندق، اذا كان صادقاً كما دل صوته الواضح.

كانت الساعة لا تتجاوز السابعة، فسارت على رؤوس اصابعها الى الحمام لئلا تحدث اية ضجة. انتعشت قواها وهي تستحم بالماء

www.elromancia.com

الحار. ارتدت ملابسها ذاتها. تاقت الى ثيابها القطنية المعلقة في خزانة غرفتها، لكنها رفضت الذهاب الى فندقها، وترك الآنسة بيتمان وحيدة. وعندما عادت الى غرفة النوم، كانت العجوز تتفرس بأبيا مستغربة.

- ماذا تفعلين هنا يا ابنتي؟

- بقيت معك ليلة امس.

- معي؟ تعنين انك لم تذهبي الى غرفتك؟

- نزلت عند رغبة الطبيب للبقاء معك. لكني نمت جيداً هنا. كان المقعد مريحاً للغاية. والآن ما رأيك في طلب الفطور؟ ماذا ترغبين؟

تجهمت العينان السوداوان، وقالت بلهجة حادة:

- اريد بعض الشاي. ولا اذكر اي شيء عن ليلة امس. اعرف انك اتيت الى هنا في الصباح، ولكن بعد ذلك يبدو كل شيء غامضاً. هل غبت عن الوعي؟

- كدت تفقدين الوعي.

وابتسمت ابيا ابتسامة فاترة، وهي تتساءل اذا ما حان الوقت لاعلان وصول جيلز فارو الوشيك. حبست انفاسها ثم اخبرتها بما فعلته، فتأكدت مخاوفها وهي ترى العجوز تزداد استياء:

- انت اخبث مما تصورت. لماذا اتصلت به وهو غارق حتى اذنيه في عمله ويكره مثل هذه الأمور؟

- لم اتبين اي استياء عندما تحدث معي. قال انه مغتبط جداً لاتصالي به.

- طبعاً يا عزيزتي. ثمة رابطة عاطفية قوية بيني وبين جيلز. مع ذلك انه مشغول كثيراً ليقطع كل هذه المسافة وبدون اي سبب ملح.

- عندما اتصلت به امس اعتقدت ان المسألة ملحة للغاية. كنت متوعكة الصحة كثيراً، وانتابني القلق عليك. ربما لو كنا في انكلترا ومع اطباء انكليز لكان اختلف شعوري.

- ان اطباء الهند اكفاء مثل اطباء الغرب. لا تكوني منغلقة على

نفسك يا ابنتي، خاصة وانك ذكية.

قالت ابيا بأسى:

- انت على حق، فأنا لم اتجول كثيراً خارج بريطانيا. مع ذلك لست نادمة على الاتصال بابن اخيك.

- هل حدد وقت وصوله؟

- هذا الصباح. لكنه لم يحدد الساعة.

انطوى الصباح ومرت الظهيرة، ولم يصل جيلز فارو، فقررت عمته انه استقل طائرة متأخرة. وكان كلما تقدم النهار ازدادت صحة العجوز سوءاً، وأبيا تقتنع اكثر فأكثر بأهمية مجيء جيلز.

وأدركت العجوز بعد ان تناولتا طعام الغداء، ان ابيا فاتتها رؤية اشياء كثيرة لاضطرارها البقاء معها. قالت:

- لن تتاح لك فرصة اخرى لرؤية مدينة سيكري. كان عليك الذهاب الى هناك اليوم. ليتني استأجرت لك سيارة لتقلك الى هناك.

ردت ابيا بهدوء:

- رأيت تاج محل، وهو منظر يعوض عن كل شيء.

لم تقتنع العجوز لكنها اكتفت بالصمت ثم قالت:

- في اي وقت تغادر المجموعة الى مدينة جيبور؟

- علينا ان نكون في المطار الساعة السادسة. هذا يعني اننا سنغادر هنا في الخامسة. اما انت فستبقين هنا.

- اعرف ذلك. ربما كنت امرأة عنيدة. ولكني لست مجنونة الى حد التفكير بمغادرة السرير وركوب الطائرة. اذهبي انت الى غرفتك واحزمي حقيبتك. لا تريدين ان تتأخري كما اعتقد؟

- يمكنني الاستعداد للرحيل بسرعة. لم افك معظم امتعتي. سأغادر هنا فور وصول ابن اخيك.

لكن مرت الساعة الرابعة ولم يظهر جيلز فارو. وغرقت الآنسة بيتمان في نوم عميق مرة ثانية، بعد ان اصابتها نوبة حادة من

السعال. نظرت ابيا الى آلة التليفون ثم سارت على رؤوس اصابعها، وخرجت متوجهة الى مكتب الاستقبال، حيث طلبت من احد الموظفين الاتصال بالمطار والاستعلام عن موعد وصول الطائرة التالية من بومباي.

قال لها الموظف :

ـ لا يوجد سوى رحلتين مباشرتين اليوم. وصلت طائرة الحادية عشرة هذا الصباح وكان يفترض وصول الأخرى الساعة الثانية لكن عطلاً في المحرك اخرها. ربما هذا المساء أو غداً صباحاً.

حملقت في وجهه مذهولة:

ـ اعرف ان السيد فارو يريد الوصول الى هنا بأقصى سرعة. ولا شك انه سيستقل طائرة تابعة لخطوط جوية اخرى.

ـ هذه هي الخطوط الجوية الوحيدة ولا يوجد غيرها داخل الهند.

عضت ابيا شفتها غيظاً ومضت تبحث عن موظف شركة كينغ للسفريات. وكان كما توقعت يقف امام الفندق يتحدث الى بعض افراد المجموعة يراقبون احد الحواة الهنود. نظرت ابيا الى الأفعى الهائلة تتلوى فوق الأرض، وأشاحت نظرها بعجل.

نادت:

ـ سيد شيران. سيد شيران.

استدار الرجل وتوجه صوبها. قال بكل تهذيب:

ـ كيف حالك اليوم آنسة ابيا وست؟ قمت بعمل خير عندما صرفت وقتك مع الآنسة بيتمان. يا لك من صديقة وفية.

تجاهلت ابيا اطرائه:

ـ هل ثمة من تغيير في ميعاد مغادرتنا؟

ـ كلا. نغادر الساعة الخامسة. اذا كانت حقيبتك جاهزة فلأذهب واجلبها الى هنا.

ـ لم احزم اية حقيبة حتى الآن. ان السيد فارو لم يصل بعد.

ولاحظت امارات التساؤل ترتسم على وجه الرجل الهندي،

فأسرعت تشرح له من هو السيد فارو، واحتمال وصوله على طائرة متأخرة من بومباي. وأضافت:

ـ لا استطيع ان اترك الآنسة بيتمان حتى يصل بومباي.

ـ ولماذا؟ ان الدكتور بيرا من افضل الأطباء في اغرا. واذا ما تفاقمت الأمور سينقلها الى مستشفى أو مصح خاص.

ـ مع ذلك لا يمكنني ان اتركها قبل التأكد من توجه السيد فارو الى هنا.

ـ لماذا لا تطلبين منزله بالهاتف لتتأكدي من ذلك؟ لا بد ان احداً هناك سيطلعك على حقيقة الأمر.

عجبت من نفسها كيف فاتتها هذه المسألة. اسرعت الى قاعة الاستقبال في الفندق، وطلبت منزله من هاتف هناك. استغرقت المخابرة حوالى ربع ساعة وهي تنتظر بقلق. ولكن هذه هي الهند، حيث تتم الأمور على نحو بطيء جداً، فحاولت كبت مشاعرها.

وأخيراً تمكنت من الاتصال بمنزله، وهرعت نحو السيد شيران عابسة:

ـ لقد غادر السيد فارو بومباي، اخبرتني مدبرة منزله انه سيتوقف في طريقه للاجتماع بأحد الوزراء، ولا تعرف المكان بالتحديد. وهذا يعني انه سيستقل طائرة اخرى من مطار ما. لا فائدة، عليّ البقاء هنا. ربما تستطيع ترتيب سفري غداً الى جيبور.

ـ لا أظن. لا يوجد مقاعد في الطائرات، اذ يحجزها المسافرون قبل اسابيع من الرحلة. ولكن سأحاول مساعدتك.

ومضى معها الى مكتب الاستقبال لمراجعة لائحة المسافرين. ثم قال:

ـ يبدو ان المسألة معقدة. سنضع اسمك على لائحة الانتظار.

ـ وماذا افعل اذا لم أتمكن من السفر؟

ـ نضع اسمك على اللائحة التالية بعد غد. وسنكون في طريقنا الى اوديبور فيترتب عليك اجراء حجز آخر. وقد يحدث بعض

التأخير ايضا. اعتقد ان من الأفضل ان نحجز لك طائرة مباشرة الى اوديبور.

هزت ابيا برأسها، وتظاهرت بالسرور عندما أبلغها السيد شيران انه نجح في مهمته. وكان يعني ذلك عدم الذهاب الى جيبور التي تاقت الى رؤيتها، والتخلف عن جولة اغرا.

وقفت حزينة خائبة الأمل تراقب أفراد المجموعة يستقلون الحافلة التي ستمضي بهم الى المطار. وابتلع الغبار الأحمر العجلات المسرعة، وابيا مسمرة في مكانها، تشعر بوحدة قاتلة. فكرت بالآنسة بيتمان، فأسرعت الى غرفتها في مؤخرة الفندق، وارتدت فستاناً جديداً قبل ان تعود الى غرفة العجوز الرحبة المطلة على الحدائق. كانت العجوز تغط في نوم عميق عندما دخلت على رؤوس اصابعها، واستلقت فوق الكرسي الوثير.

وترامى الى مسامعها رنين اوتار رتيبة لآلة موسيقية هندية. استرخت تصغي الى عزفها وتهدىء أعصابها. تضاءلت خيبة أملها، وسرى في شرايينها خدر مسكن. ما هي أهمية مشاهدة بعض الآثار مقابل رعاية امرأة عجوز وادخال الطمأنينة الى قلبها؟ أغمضت عينيها، وهي تشعر بارتياح عميق.

بهرها اندلاع النور الكهربائي، فنهضت على قدميها فجأة. كان جيلز فارو في الغرفة: طويل القامة، معتداً بنفسه، يدل مظهره على أصله الانكليزي التقليدي. وقبل ان يتفوه احدهما بكلمة واحدة، استوت الآنسة بيتمان في فراشها، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة ممزوجة بالتأنيب والخجل. خاطبته:

- عزيزي جيلز، انا آسفة لحملك على المجيء الى هنا بدون أي سبب. تحسنت كثيراً الآن. لم يكن من الضروري ان تتصل بك ابيا الليلة الماضية.

أجاب وهو يخطو نحو السرير، ويطبع قبلة على وجنتها:

- كنت مريضة ليلة امس. ولا تعتذري لتحسن صحتك. انا

سعيد جداً لهذا التطور.

- مع ذلك بددت وقتك سدى. انا آسفة جداً يا جيلز.

- كيف أبدد وقتي عندما اسمعك تعتذرين مني مرتين خلال دقيقة واحدة! لا أذكر انك فعلت ذلك ابداً.

دفعت العجوز رأسها الى الوراء، وقبل ان تستطرد في الحديث انتابتها نوبة من السعال الحاد. شد جيلز على يدها يهدىء من روعها، ثم صب لها كوباً من عصير الفاكهة. وبعد ان احتست بعض الجرعات، نظرت العجوز الى ابيا نظرة حنان وعرفان بالجميل. قالت لها:

- والآن يا عزيزتي يسرني ان أريحك مني ومن همومي. تصور يا جيلز ان هذه البنت تخلفت عن الرحلة امس واليوم من أجلي. ولكن ليس بعد الآن يا عزيزتي. هيا تمتعي بما تبقى من الرحلة. وقبل ان تذهبي اريد عنوانك في لندن لأتصل بك فيما بعد. أريد ان أبحث معك أمراً ما.

ألقت ابيا نظرة عاجلة على ساعتها، فأدركت ان الالتحاق بالمجموعة اصبح امراً مستحيلا. تبين لها ان جيلز فارو يتفحصها بأسلوب ممزوج بالامتعاض، وكأنها ارتكبت خطأ ما. هل هو مستاء منها لاتصالها به، رغم ما قاله لعمته؟ قررت ان تفصح عن أفكارها:

- ان المجموعة غادرت الفندق للأسف الشديد. كان ذلك في الساعة الخامسة والساعة الآن تجاوزت الثامنة.

تجهم وجه العجوز، وقالت بأسى:

- يا لك من بنت سيئة الحظ! لماذا لم تذكري اي شيء قبل ذلك؟ عرفت ان جيلز في طريقه الى هنا، وكان عليك ان تذهبي!

قالت ابيا بدون ان تنظر الى جيلز فارو:

- تأخرت طائرته. ولم يكن احد يعرف موعد وصوله تماماً.

- مع ذلك كان عليك الذهاب.

- يستحيل عليّ تركك وحيدة. وقمت بما أوحى به ضميري. وها

انا اكسب يوماً اضافياً حيث استطيع الذهاب الى سيكري غداً، فلا يفوتني اي شيء.

- انها فكرة رائعة. وغداً مساء تتوجهين الى جيبور؟

ترددت ابيا قليلا في الاجابة، فأدركت العجوز مغزى صمتها:

- فاتتك رحلة جيبور ايضا؟

تلعثمت ابيا:

- نعم. اخفق السيد شيران في حجز مقعد لي في الوقت الملائم. ولكن لن يفوتني الشيء الكثير في جيبور. سأستفيد من وقتي هنا لمشاهدة تاج محل مرة ثانية.

خاطبت العجوز ابن اخيها:

- فاتتها معظم الرحلة يا جيلز. علينا ان نفكر في مشروع ما.

قال بحدة:

- اشعر بارهاق شديد الآن، ولا استطيع التفكير في أي شيء. كانت رحلة متعبة. ولا أتمنى سوى الاستحمام وتبديل ملابسي وتناول وجبة العشاء.

- اذن هيا استحم ثم خذ هذه البنت المسكينة معك الى العشاء. لا أريدها ان تبقى في غرفتي لحظة واحدة.

احست ابيا بعيني جيلز تتفرسان في وجهها، قال باقتضاب:

- سأراك في قاعة المغل خلال ساعة.

أومأت برأسها، وكادت ان ترفض دعوة مقيتة كهذه لولا اصرار الأنسة بيتمان. وهي لم تكن دعوة بل مجرد استجابة لالحاح عمته. كرر كلماته وهو يغادر الغرفة:

- خلال ساعة.

وعندما أصبحت ابيا بمفردها مع العجوز، أخذت تفكر في ابداء رفضها لهذه الدعوة. ثم قررت الاعتصام بالصمت، تتجاذبها مشاعر من القرف والاستياء. تمتمت العجوز:

- لا أعرف كيف أشكرك على بقائك معي. انك ذات قلب

يطفح طيبة.

أكدت لها ابيا:

- لم أقم سوى بواجبي. وهو ما يقوم به اي شخص في وضع كهذا.

- لا يا عزيزتي. ليس الى الحد الذي ذهبت اليه. لولاك لكنت الآن في عهدة احدى الممرضات. وهذا ما كان عليك فعله. انت طيبة القلب كثيراً.

اغرورقت عينا ابيا بالدموع:

- سأمضي الى غرفتي الآن.

- حسناً. ان ابن اخي يكره انتظار الناس.

كبتت ابيا تعليقاً لاذعاً، وابتسمت قليلا وهي تغادر الغرفة.

٥- جيلز فارو! هذا الرجل الكريه، كيف يجرؤ على توجيه تلك التهم اليها؟ تراقصت صورته امام خيالها فازدادت كرهاً له. وتمنت لو تستطيع الانتقام!

صعدت ابيا الى الطبقة العليا من الفندق قبل لحظات من الموعد المحدد، فوجدت جيلز في انتظارها. كان يرتدي بذلة بنية فوق قميص حريري متناسب في اللون. وبدا شعره في الضوء الخافت داكناً بعض الشيء، ولكنه يمور لمعاناً. جلس مقابلها الى الطاولة الجانبية.

قال بلهجة صارمة:

- يمكنك اختيار طبق هندي او اوروبي.

أجابت:

- انا اختار دائماً الأكل الهندي. ما معنى ان يجتاز المرء كل هذه المسافة حول العالم ثم يتناول وجبة بلده الوطنية؟

- هذا يعتمد على ذوق المعدة، وما اعتاد عليه كل شخص.

انعقد لسانها امام هذا المنطق المحكم. وتمنت لو تجرأت على رفض دعوته بغض النظر عن رأي عمته. اخذت تتصفح لائحة الطعام، ولم تشأ استدعاء النادل كعادتها والاستفسار عن معنى هذا الصنف او ذاك. قررت عدم المغامرة وهي تلاحظ مراقبة جيلز فارو لها فطلبت دجاج تندوري.

سألها مضيفها:

- وهل تتناولين شيئاً معه؟

- وهل من الضروري تناول شيء آخر؟

- نعم اذا كنت جائعة.

أقرت:

- انني أتضور جوعاً. تناولت لقمة على عجل وقت الغداء.

- كنت مشغولة جداً في تأدية دور الملاك الحارس؟

كانت السخرية تقطر من كل كلمة تفوه بها وتاقت الى النهوض ومغادرة الطاولة فوراً. لكنها عادت فسيطرت على مشاعرها.

استطرد:

- تسرني هذه اللهفة لتناول الطعام. هل هي نتيجة حصولك على ما تبتغين؟

- آسفة لم أفهم؟

- حزت على انتباه عمتي. وهذا ما كنت تريدينه، أليس كذلك؟

خالت ابيا انها لم تسمع ما قاله بالضبط، ولكن الغضب الذي ارتسم على وجهه انبأها انها لم تخطىء المغزى الكامن وراء كلماته. اعتقد لأسباب خاصة به انها تتعمد خداع عمته.

قالت بصوت مضطرب:

- لا اعرف سبب وجود هذا الانطباع السيء لديك عني. اؤكد لك اني قدمت تضحية كبيرة في بقائي مع عمتك والتخلف عن الجولة السياحية. امكانياتي لا تسمح لي بتكبد نفقات رحلة أخرى الى

الهند، وهذه الرحلة تعني لي الشيء الكثير.

ـ ولكن صداقة عمتي تفوق الرحلة أهمية بما لا يقاس. ستتاح لك فرصة القيام برحلات عديدة ممتعة اذا عرفت كيف تتصرفين بحذاقة.

استشاطت ابيا غضباً:

ـ ما الذي يمكنني الحصول عليه من عمتك، ولماذا تفترض انها مهتمة بي؟

قال بفظاظة:

ـ لأنه يمكنك ان تصبحي سكرتيرتها وزميلتها. لم يسبق لها ان سافرت وحدها. كان دائماً يصحبها احد ما لتولي الضرب على الآلة الكاتبة وترتيب كل اوراقها. انه عمل ممتاز، ولا ألومك اذا كنت تريدين الحصول عليه. من رفض قضاء ستة أشهر في منزل ريفي فخم وستة أشهر اخرى مسافراً حول العالم؟ انها فرصة لا تفوت.

ـ لا أفهم ماذا تعني بالضبط. لم يخطر في بالي ان عمتك تستخدم اي شخص و...

ـ كفى تظاهراً بالبراءة. وستقولين لي الآن انك تجهلين هويتها!

سألته ابيا بسخرية طريفة:

ـ وهل كونها عمتك يجعلها انسانة مهمة جداً؟

ارتسمت ابتسامة باهتة فوق ثغره:

ـ اهنئك على هذا التمويه الناجح آنسة ابيا وست. ولكنك تعرفين جيداً من هي. العالم كله يعرف ماتي بيتس.

رددت ابيا:

ـ ماتي بيتس. هل تعني ان الآنسة بيتمان هي... ولكن لم يدر في خلدي... تعني ماتي بيتس كاتبة الروايات البوليسية، أليس كذلك؟

قال جازماً:

ـ نعم. وأرجوك وفّري عليك بقية المسرحية.

ـ سأكون اكثر صراحة، سيد فارو. سأوفر عليك تناول العشاء معي (ونهضت واقفة على قدميها). كفى غمزاً ولمزاً. سواء صدقتني أم لا، اسمعني جيداً. لم أعرف عن عمتك أي شيء سوى انها امرأة عجوز ظريفة تسافر وحيدة. واعتقدت ايضا، وهذا لن تصدقه، انك تدفع نفقات رحلتها بنفسك.

وقبل ان تنتظر جوابه استدارت وانطلقت صوب الباب. كانت تقف قرب المصعد تضغط على الزر الكهربائي عندما لحق بها. قال ببرودة:

ـ افترضت انك ستتناولين طعام العشاء معي.

ـ تناوله بمفردك، لا شك انك ستتمتع به أكثر.

ـ آسف لاغضابك آنسة وست.

ـ انت لم تغضبني. أنا دائماً متهمة بالتورط مع العجائز. وأنا عملياً أؤمن على حياتهن بمبلغ ضخم قبل ان أتخلص منهن.

انفتح باب المصعد وخطت الى داخله. قال بعجلة:

ـ ارجوك عودي الى الطاولة ولنتابع الحديث.

ـ لا شكراً. أود النوم باكراً.

هبط المصعد، فاتكأت على الحافة من الاضطراب الشديد. يا له من رجل مقيت! ويا للآراء المشوهة التي يكونها حول الآخرين اذا كان يظن انها صادقت عمته لتستفيد منها!

ماتي بيتس. ارتسم في ذهنها بعض ما قرأته من رواياتها، واستعادت أسماء أبطالها الذين سلبوا لب القراء طوال ثلاثين عاماً. ولم تقتصر شهرة ماتي بيتس على تأليف الكتب بل امتدت الى المسرحيات والأفلام. كانت تملك ثروة خيالية، فاستخدمتها لتؤمن حياة خاصة هنيئة، لا يعكر صفوها أحد من الناس.

توقف المصعد وخرجت ابيا الى البهو. لاح لها ان جيلز فارو يعذبه ضميره لأنه المستفيد الوحيد من ثروة عمته. وهو شعور بالذنب يجعله يشك في كل انسان يحاول كسب صداقة عمته. وازداد كرهها له وهي

تفكر في هذه الأمور، فقررت الذهاب في نزهة قصيرة في عربة صغيرة.

توجهت نحو مدخل الفندق. سألها البواب الليلي:

- هل تريدين سيارة أجرة؟

ترددت قليلا، ثم قالت انها تريد دراجة ذات دولابين، لادراكها انها أبخس ثمناً.

نادى احدى الدراجات. فصعدت الى المقعد الضيق، وأبلغت السائق اسم فندق آخر لمحته عندما توجهت الى تاج محل ليلة وصولها الى اغرا.

أخذ السائق يدوس برجليه على العجلات، والهواء القارس يلسع وجهها، لكنها ظلت في حالة من الغليان الداخلي وهي تستعيد حديثها مع جيلز فارو. كيف يجرؤ على توجيه تلك التهم اليها؟ ألا يعرف ان عمته احذق من ان تنطلي عليها خدع كهذه؟ انها عجوز ذات قدرة عجيبة على تمييز الناس، والحكم على شخصياتهم، وهذا ما تبين لابيا في حكمها على أفراد المجموعة. يبدو ان ذكاءها لا يخونها الا فيما يتعلق بابن اخيها! خاطبت ابيا نفسها:

- سأغادر هذا المكان مع انبلاج فجر الغد. واذا عجزت عن حجز مكان في الطائرة فسأنتقل الى فندق آخر. وهكذا أثبت للسيد العظيم ان وساوسه لا أساس لها من الصحة.

وبعد ان اتخذت هذا القرار، بدأت ابيا تجيل النظر فيما حولها. ورأت ان الدراجة توقفت واستدار السائق صوبها. قال:

- ان الطريق الى الفندق طويلة جداً. أريد عشر روبيات أكثر.

فاجأتها كلماته. ثم استبد بها الخوف. لكنها ارتأت عدم الافصاح عن مخاوفها، فحدقت في الرجل باسلوب متعجرف قدر امكانها:

- لن أدفع لك روبية واحدة اكثر من اللازم. لقد اتفقنا على الأجرة مسبقاً.

- غيرت رأيي. انها مسافة طويلة.

كررت ابيا:

- كلا.

كانت تدرك ان المبلغ الاضافي لا يمثل أي شيء بالنسبة الى سائح اوروبي، ولكن القبول به يعني الخضوع للابتزاز المتواصل. تابعت:

- سأدفع لك شيئاً اضافياً عندما نصل الى الفندق.

- اذا رفضت الدفع فلن آخذك الى أي مكان.

- اذن سأبحث عن سائق آخر.

وقفزت ابيا الى الأرض قبل ان تخونها شجاعتها. كانت الشوارع مظلمة، لا أنوار تكشف امامها الطريق، بل مجرد قمر خافت. اسرعت الخطى. لم تلمح أية دراجات وبدا المكان مقفراً من الناس. وخالت انها لن تجد دراجة اجرة ثانية. مع ذلك صممت على عدم التنازل لمطالب السائق الهندي بأي ثمن. لو أقدمت على هذه الخطوة لكان ازداد طمعاً، وربما سرق جزدانها او قتلها. أرعبتها الفكرة فضاعفت سرعتها. ظل السائق يلاحقها:

- ارجعي الى هنا يا سيدة. اصعدي على الدراجة.

- كلا. شكراً. سأطلب من شخص آخر استئجار دراجة.

- لا يوجد احد في هذه الساعة المتأخرة. ولا يمكنك قطع كل هذه المسافة على قدميك. لا أريد دراهم الآن. سأنتظر حتى نصل الى الفندق.

ظلت ترفض أي شيء يقترحه وهي تحث الخطى مسرعة. تبين لها ان الطريق تنعطف بعد مسافة قصيرة نحو مستديرة تزنرها الاعشاب. ثم رأت اكواماً من الناس تفترش الأرض وترقد في العراء حيث لا مأوى آخر ليضمهم. ولاح لها ان هذه المجموعات البشرية التي تكره النظر اليها ربما كانت وسيلة انقاذها الوحيدة.

- لن أخيفك ايتها السيدة. عودي الى مقعدك ولنمض الى الفندق.

حاولت الاسراع بدون الرد عليه. لكنها احست بوخز في

خاصرتها ولم تتمكن من التقدم اكثر. سمعت هدير سيارة وراءها ثم سطعت انوارها فوق الطريق الترابي امامها. ثم أبطأت سرعتها، وامتد وجه عبر النافذة:

- آنسة وست؟

نظرت مذهولة وهي تتبين ملامح جيلز فارو. سألها فجأة:

- لماذا تركضين هكذا؟

- يريد السائق ان أدفع أجرته سلفاً، ولم تعجبني الفكرة.

- انه رأي صائب وحكيم. ومن الصواب والحكمة ايضا عدم السير على الأقدام. اصعدي.

فتح لها باب التاكسي. اوحى اليها كبرياؤها برفض عرضه، لكن الخوف دفعها الى القبول، وصعدت الى المقعد بجانبه بدون ان تعلق بشيء. ثم سمعته يقول شيئاً باللغة المحلية لسائق الدراجة. لم تفهم ابيا شيئاً، لكن لهجته بدت واضحة كفاية، حيث مضى صاحب الدراجة لا يلوي على شيء.

سألته بحذر:

- ماذا قلت له؟

- قلت له اذا ما رأيته امام الفندق مرة اخرى فسأسلخ جلده.

استفسرت:

- كيف عرفت انني هنا؟

- لم أعرف. كانت مجرد صدفة. لحقت بك حتى مدخل الفندق فأخبرني البواب انك استأجرت دراجة. قررت ان أتبعك بدون معرفة اتجاهك. لا تكرري هذا الخطأ ثانية فلا يمكنك التجول هكذا وحيدة كفتاة لا يحميها احد. واذا كان لا بد من التجول ليلا فالأفضل استئجار سيارة.

- ان السيارات اكثر كلفة.

هز بكتفيه:

- انها مجرد روبيات قليلة. ارفض ان اعتبرك فقيرة الى هذا الحد.

أدركت انه يعني كل كلمة يقولها، وعجبت من جهله لكيفية معيشة معظم الناس العاديين، حيث يرتبون حياتهم وفق ميزانية محددة كل قرش منها يقرر استمرارهم في الحياة الطبيعية. قالت بتأفف:

- جئت لأقضي هذه العطلة وفق مبلغ محدد من المال. واذا ما بددت دراهمي هنا وهناك، فلن يبقى معي شيء لأشتري بعض البضائع.

- كنت أظنك أحذق من ان تعتبري انفاق بضع روبيات اضافية أهم من سلامتك. وماذا ستشترين؟

صاحت محتجة:

- انك رجل فظ!

وغرقت في صمت عميق. بعد لحظات معدودة وصلا الى فندق كلارك شيراز. حاولت ان تفتح الباب ما ان توقفت السيارة.

قال جيلز فارو:

- لحظة واحدة من فضلك. من حقك ان تعرفي اني بدلت غرفتك.

تجمدت في مكانها:

- ماذا فعلت؟

- طلبت من مدير الفندق تبديل غرفتك. كانت هذه رغبة عمتي، ولا علاقة لي بالأمر. ارادت ان تمتعك بغرفة مطلة على تاج محل.

اغرورقت عينا ابيا بالدموع، فمسحتها خلسة. ما أروع الآنسة بيتمان! كم هي تختلف عن ابن اخيها المتغطرس! قالت:

- لا ضرورة لذلك سيد فارو. أنوي الرحيل عن اغرا غداً. ولا حاجة الى تبديل غرفتي من اجل ليلة واحدة.

- تم ترتيب كل شيء الآن.

- اذن ليلغوا الترتيب!

قفزت من التاكسي، وركضت الى الفندق. كانت تطلب مفتاح

غرفتها من موظف الاستقبال عندما لحق بها جيلز فارو. قال بنعومة:

ـ لا حاجة الى هذا الاعتراض التافه، آنسة وست. ترغب عمتي في ابداء عرفان جميلها لك، ومن السخف رفض رغبتها.

استدارت صوبه وهي تغلي حنقاً. تفرست في وجهه متمنية لو كانت تفوقه طولا فتتمكن من رد الصاع صاعين. علّق هازئاً:

ـ ان هذه القامة القصيرة لا تنسجم مع مزاجك الحاد. اعصابي مرهقة ولا أنوي مجادلتك اكثر من ذلك. اذا كنت ترفضين رغبة عمتي، فالأفضل لك ان تصعدي الى غرفتها وتبلغيها قرارك.

عضت أسنان ابيا الصغيرة البيضاء شفتها السفلى، مدركة ان جيلز فارو جعلها تتصرف كالأطفال.

حدجته بانفعال:

ـ حسناً. سأفعل مثلما تريد الآنسة بيتمان. لن تتأثر ثروتها كثيراً بصرف نفقات غرفة لليلة واحدة. اراهنك انها قادرة على شراء الفندق بأكلمه، وبدون أي عناء.

بدا للوهلة الأولى مذهولا تماماً، ثم أدرك انها تحاول استفزازه، فألقى نظرة سريعة على ساعته ثم قال:

ـ أكاد أتضور جوعاً يا آنسة وست. اجبرني تصرفك الأرعن على التخلي عن عشائي في بدايته. ولا استطيع الانتظار اكثر، واقترح عليك الذهاب الى غرفتك لأتناول وجبتي بأمان وهدوء.

وقبل ان تفكر في رد ملائم استدار ومضى في سبيله. ظلت واقفة هناك تصارع مزيجاً غريباً من مشاعر الغضب والحيرة والكره.

لكنها ما لبثت ان استعادت بشاشتها عندما دخلت غرفتها الجديدة. كانت حقائبها مرتبة في الزاوية، ويبدو كل شيء في منتهى النظافة والأناقة. فتحت احدى حقائبها وأخرجت منها بعض الأشياء. شعرت بجوع قاتل وهي تستقر قرب سريرها تحلم في طلب وجبة شهية. سمعت قرعاً خفيفاً على الباب، ثم دخلت خادمة الفندق تجر عربة صغيرة، عامرة بأطيب الوجبات. نظرت

اليها متسائلة:

ـ لم أطلب أي شيء بعد!

قالت الخادمة:

ـ تلقينا الطلب في المطبخ. اذا كنت تودين أي شيء آخر فنحن في خدمتك.

وخرجت الخادمة موصدة الباب وراءها. اخذت ابيا تلتهم طعامها مدركة في أعماقها ان جيلز فارو هو الذي أقدم على هذه المبادرة.

مع ذلك بدأت تمضغ طعامها وصورة جيلز فارو تتراقص امام مخيلتها، فتزداد كرهاً له، وتتمنى لو تستطيع الانتقام منه.

٦- ربما كان جيلز رجلاً ذا أوصاف عديدة، ولكنه حتماً ليس عاطفياً. ولا يمكن ان تتصوره مجرد عاشق هائم دامي الفؤاد لا يجرؤ على الانتقام من المرأة التي خذلته!

حمدت الله على هذه الوجبة الشهية، وقررت الذهاب الى غرفة الآنسة بيتمان. رأت ابيا النور ينبعث من تحت الباب فأدركت انها لا تزال مستيقظة. هتفت العجوز وهي ترحب بها:

ـ اهلا وسهلا بك. كم أنا سعيدة لتناولك العشاء مع جيلز. هذه فرصة ملائمة لتتعارفا.

ابتسمت ابيا دون ان تعلق بشيء، عازمة على اخفاء حقيقة ما جرى بينها وبين ابن اخيها. كيف يمكنها ان تقول لها ان تعارفهما يماثل تعارف الحية الرقطاء والأرنب البري، فكرت ابيا بمرارة وهي تجلس قرب السرير. قالت:

ـ تبدو عليك امارات البشاشة يا آنسة بيتمان.

رمقتها العجوز ممعنة النظر في وجنتيها المتوردتين وفستانها الزهري الذي يشد جسمها النحيل:

ـ نعم أنا في غاية الارتياح الآن. وتبدو عليك البشاشة ايضا يا عزيزتي. هل تحبين غرفتك الجديدة؟

ـ انها رائعة. لكنها لم تكن ضرورية. كنت سعيدة بغرفتي القديمة.

ـ مع ذلك تستطيعين الآن رؤية تاج محل من نافذتك. وأنت مولعة به.

التقت نظراتهما، فابتسمتا معاً بغبطة فائقة. استطردت العجوز:

ـ لا أريدك ان تبقي هنا للترويح عني. ثمة حفلة رقص في بعض القاعات السفلى.

ردت ابيا:

ـ وما أهمية ذلك؟ استطيع ان أرقص ساعة اشاء في لندن.

ـ صحيح؟

ـ احياناً. ولكن عندما يخطر في بالي. أجد معظم الشباب في عمري تافهين، والرجال الأكبر سناً اما متزوجين او يبيتون نوايا سيئة.

ـ أفهم مغزى كلامك. انا لست غبية الى الحد الذي تتصورينه.

افتر ثغر ابيا:

ـ لا بد انك تسخرين مني لجهلي بهويتك الحقيقية. لكن السيد فارو اخبرني و. .

قاطعتها مستاءة:

ـ جيلز أخبرك. كان عليّ تنبيهه ليمسك لسانه الذرب. كنت أنوي ابلاغك بنفسي فور وصولنا الى بومباي. فأنا أريد منك شيئاً محدداً.

ـ حقاً؟

ـ هل حزرت؟

لم يصعب على ابيا التكهن بعد حديثها مع جيلز فارو، لكنها فضلت التكتم، وانتظرت ان تفشي لها العجوز بسرها الدفين. وهكذا أرادت منها الآنسة بيتمان ان تكون سكرتيرتها ومرافقتها الخاصة. ثم تابعت:

ـ لا أريد منك جواباً الآن يا ابنتي. فكري في الأمر بدقة. يقع منزلي في الريف، وستكون حياتك معي رتيبة للغاية. أسافر من وقت لآخر وستكونين في صحبتي طبعاً. وعملك سيكون متعباً وشاقاً.

ابتسمت ابيا:

ـ بعد ان أوضحت لي كل الأسباب التي تحملني على رفض العمل، هلا تفضلت بذكر أسباب قبولي لهذه المهمة؟

ـ لأنك ذكرت لي مدى ولعك بالريف. ولأنك تحبين الحيوانات، وسأهديك كلباً للاعتناء به، ويكون ملكك الخاص. ولأنك مولعة بالسفر، ورحلتي التالية ستكون الى اليابان (صمتت العجوز لحظة) مع ذلك أريدك ان تدرسي المسألة بدقة.

حدقت ابيا في السجادة:

ـ هل يزورك ابن اخيك غالباً؟

ـ لم يزرني لمدة ثلاث سنوات ومنذ ان استقر في الهند. لكنه سيعود الى انكلترا خلال بضعة أشهر، وأستطيع القول انه سيأتي لزيارتي في نهاية الاسبوع كل شهر.

ـ هل يعرف انك تعرضين عليّ هذا العمل؟ اذ انه لن يوافق. يعتقد ان عنايتي الفائقة بك تتعلق بطموحي للحصول على شغل معك.

تفرست العجوز في وجه ابيا:

ـ وهو رأي يثبت مدى جهل الرجال عندما يصدرون أحكامهم على النساء. ولا عجب اذا كنت لم أتزوج! لا تدعي آراء جيلز تزعجك. انه يحرص عليّ كثيراً، وطالما انك تودين الاعتناء بي، فثمة قاسم مشترك بينكما.

كتمت ابيا رأيها في جيلز، ولم تفصح عن التنافر الحاد الذي بينهما. قالت:

ـ احب ان أعمل لديك آنسة بيتمان. يبدو لي انه عمل رائع.

تهللت العجوز طرباً، واحتفظت ابيا بهذا الانطباع عندما قابلت جيلز فارو امام غرفة عمته في صباح اليوم التالي. علّق ببرودة:

ـ اذن حققت طموحك في الحياة؟

ردت باحتشام:

ـ اذا كان هذا هو رأيك سيد فارو. لا أرغب في تغيير رأيك بي.

ـ لن تنجحي. يمكنك خداع عمتي، اما أنا فسأظل خصمك العنيد.

ـ ستظل تتعقبني مخافة ان أسرق آنية الفضة؟

ـ لحسن الحظ ان دراهمها مستثمرة في الشركات التجارية. ولذلك لا يستطيع احد استغلالها بعد الآن.

قال عبارته بدون تفكير، فعلقت ابيا:

ـ وحتى أنت؟

خطا نحوها، فتراجعت ابيا متوجسة. وما لبث ان سيطر على اعصابه، وفتح لها باب غرفة عمته، وعيناه تقدحان شرراً.

كانت العجوز تجلس فوق مقعد صغير قرب النافذة، وهي ترتدي ملابسها المعتادة. أعلنت بعد ان رحبت بهما:

ـ سأخرج للتنزه قليلا. ولكنك انت يا عزيزتي ابيا ستذهبين الى سيكري. حجزت لك سيارة مع سائقها. انه ينتظرك في الطابق الأرضي.

تألقت عينا ابيا فرحاً، وشع وجهها جمالا الى ان أطفأ ألقه منظر جيلز فارو المشمئز. ما أسهل قراءة أفكاره! قالت ابيا:

ـ هذه بادرة غير ضرورية. استطيع الانضمام الى مجموعة من السياح.

أصرت العجوز:

ـ لا فائدة من الجدل يا ابنتي. تم كل شيء الآن. اذهبي ومتعي نفسك.

واستمتعت ابيا فعلا. كانت مدينة سيكري، مثل القلعة الحمراء في دلهي، مبنية من الحجارة الرملية الحمراء. وينتهي الشبه بينهما عند هذا الحد، اذ ان هندسة المباني بالغة الاتقان، وتحتفظ النقوش على الأعمدة الحجرية بنضارتها وجدّتها حتى يكاد المرء ينسى ان قروناً عديدة مرت عليها.

مع ذلك، لم يفت ابيا الاهمال الذي تعرّض له المكان، وخاصة تشويه الحيطان بشعارات مختلفة نشرتها أيدي بعض أصحاب الأفكار المتطرفة. ظلت تشغلها هذه المناظر وهي في طريق عودتها الى اغرا.

توقف السائق في منتصف المدينة لتبريد محرك السيارة ببعض الماء. وما ان خرج بحثاً عن الماء حتى تحلقت مجموعات من الشحاذين حولها. أحكمت ابيا اغلاق النوافذ. راحت شتى الأيدي تطرق الزجاج، وتلك الوجوه الجائعة تحدق فيها غير مبالية باحتجاجها وتبرّمها. لم يجرب احد فتح الأبواب لحسن حظها، ولكن السيارة اخذت تهتز بعنف تحت ثقل الأجسام المتدافعة. شعرت ابيا كأنها نجمة سينمائية محاطة بالمعجبين والمعجبات، لكن الصراخ المتواصل المتوسل كان يروي لها قصة اخرى:

ـ لا أم ولا أب... صدقة.. صدقة. عشرة اخوان... وعشر اخوات... فلوس... فلوس...

ورفع بعض الأولاد قصاصات من الورق كتبت عليها قصة حياتهم البائسة. وقرأت ابيا احدى القصص عبر النافذة:

ـ فقدت أمي قدميها، ووالدي أعمى. بيتنا تحت الشجرة في العراء.

أغمضت عينيها ملتاعة، واستلقت الى الوراء في مقعدها، متضرعة الى ربها ليعيد السائق بأقصى سرعة. وكم شعرت بالارتياح عند عودته، مع انها ظلت ترتجف هلعاً بعد ان قطعت السيارة اميالا

عديدة. قال السائق:

ـ سنصل الى بلدة اخرى بعد قليل. هل تريدين التوقف لاحتساء الشاي او تناول بعض الطعام؟

رفضت بسرعة جنونية وهي تفكر في تطويق طوابير الشحاذين لها مرة ثانية. احتفظت بآرائها حول الحياة الهندية لنفسها خشية جرح مشاعر سائقها.

كانت الساعة تقارب الثانية بعد الظهر عندما عادت الى الفندق، ومضت لتوها الى غرفة الطعام لتناول الغداء. كان عدد كبير من السياح هناك، ومن جنسيات متعددة، خاصة مجموعة من الألمان الذين لا يرتوون، وأخرى من اليابانيين الذين يهوون الضجيج، ومن السكندنافيين الهادئي الطباع. كانت ابيا تتناول طعامها وحيدة، وطلبت طعاماً هندياً عوض الأطباق الاوروبية المألوفة.

وأدركت وهي تحتسي قهوتها ان عليها التأقلم مع اجواء حياة الفنادق. اذ ان العمل مع الآنسة بيتمان يعني السفر المتكرر، والذي لم تألفه في حياتها المتواضعة. انها فرصة نادرة لم تعرف كيف هبطت عليها. ومع ان معظم الفتيات يرفضن العيش تسعة أشهر في الريف الانكليزي، مقابل النجول في العالم بقية اشهر السنة الأخرى، فهي ترحب بهذا النمط الجديد، وتتوقع ان تجد لذة فائقة في التمتع بأمور اخرى.

سوف تستفيد كثيراً من خبرة الآنسة بيتمان الواسعة والمليئة بالمغامرات. وهنا قفزت الى ذهنها صورة والدها المثقف والمرهف الاحساس، والذي شكلت وفاته وهي مجرد طفلة صغيرة اكبر خسارة في حياتها.

راحت تجيل النظر حولها غارقة في احلامها، ولشد ما كانت دهشتها عندما رأت جيلز فارو ينتصب واقفاً قربها. سألها بتأفف:

ـ لماذا تحفلين كالأرنب المذعور كلما حط نظرك عليّ؟

تجنبت النظر اليه مباشرة:

- لم أكن أتوقعك. عندما رأيتك هذا الصباح نسيت ان أشكرك على ارسال العشاء الى غرفتي ليلة امس.

- ارجو ان يكون الطعام حسّن مزاجك؟

حملقت فيه:

- ان مزاجي على ما يرام سيد فارو. هل جئت الى هنا بحثاً عني، ام كنت في طريقك الى مكان آخر؟

تجاهل سخريتها:

- جئت لأخبرك انني وعمتي سنغادر الى بومباي غداً. قال الدكتور ان صحتها تسمح لها بالسفر، وأريدها ان تستقر في منزلي (صمت قليلا) اعرف انك تنوين التوجه الى اوديبور من هنا، ولكن عندما تنتهي تلك الجولة وتأتين الى بومباي، تتمنى عمتي عليك ان تنزلي معنا.

- أفضل ان أنزل في فندق، خاصة ان نفقاته يشملها سعر التذكرة.

- تعتقد عمتي انك سترتاحين اكثر معنا.

لاح لها ان الرفض لا يليق بها. كانت العجوز تعرف ان سكرتيرتها لا يتفق مزاجها مع ابن اخيها، لكنها لا تتصور ان هذا الكره يمكنه ان يظل حاجزاً بينها وبين بناء علاقة متينة معها. قالت أخيراً:

- حسناً. سأحاول ان أكون خفيفة الظل.

أجاب:

- حاولي ان تكوني مفيدة لعمتي بدون ان تستفيدي منها.

حبست ابيا انفاسها. ألن يكف عن عدائه لها؟ وكأنه قرأ أفكارها، فأطلق ابتسامة باهتة:

- لا تروق لي النساء عامة آنسة وست، ولا تستهويني خاصة الفتيات الجميلات.

قالت لتوها:

- هذه المواصفات لا تنطبق عليّ حتماً.

- لم أعتقد انك من ذلك النوع الذي يصطاد الثناء اصطياداً.

- انت مخطىء يا سيد فارو. كل ما في الأمر اني اعرف حدودي فالتزم بها.

قال بفظاظة:

- لا تتظاهري بالسذاجة أرجوك!

انقدت غيظاً. لماذا يظن انها تلعب دور المرأة المغناج، وما الذي جعله ينظر اليها كأكثر من فتاة عادية جداً؟ تابع كلامه:

- أريد ان أضيف شيئاً آخر. فاتنك رؤية جيبور مما ادخل الأسى الى قلب عمتي، وطلبت ان أرتب لك رحلة الى هناك.

- هذا شبه مستحيل. سيصل أفراد المجموعة السياحية الى هناك اليوم، ولا استطيع ركوب الطائرة في الوقت المحدد للانضمام اليهم. ولهذا السبب قررت التوجه مباشرة الى أوديبور.

- يمكنك الذهاب الى جيبور بعد اوديبور، ولا تبالي كثيراً بأفراد المجموعة. لدي اصدقاء هناك سيسعدهم ان يستضيفوك لمدة يومين او ثلاثة أيام او اكثر اذا شئت. ثم تنضمين الى عمتي في بومباي خلال اسبوع.

كان عرضاً مغرياً وجدت ابيا صعوبة في رفضه، لكن كان عليها ان ترفض، وتنقذ نفسها من مغبة رد عرفان الجميل لهذا الرجل. قالت:

- دفعت نفقات يومين في اوديبور يا سيد فارو. وأنا سعيدة جداً بذلك. وسأغادر اوديبور مع بقية المجموعة، وانضم الى عمتك بعد ذلك.

أعلن:

- انك كمن يشرب من البئر ويرمي فيها حجراً.

- لا تزعج نفسك. انها بئري في شتى الأحوال.

مضى في سبيله لا يلوي على شيء، وراحت تحتسي قهوتها الباردة

المرة تماما مثل شخصية فارو جيلز.

واكتشفت مدى المرارة التي تلتهم شخصيته عندما انضمت الى الآنسة بيتمان، قرب حوض الماء ذلك المساء. وأخذت عمته تتساءل عن مكان وجوده بعد ان اختفى عن الأنظار، وتلوم نفسها على حمله للمجيء وهو رجل الأعمال الدائم الحركة. قالت تشرح سبب قلقها:

ـ عندما تدنو نهاية مشروع ما تتراكم الأشغال على نحو غير متوقع.

سألتها ابيا:

ـ وهل كان مشروعاً ناجحاً؟

ـ بكل تأكيد. وتريد الحكومة الهندية منه ان يمكث ثلاثة أعوام اخرى. لكنه يرفض. ويقول ان انكلترا تحتاج اليه اكثر.

ـ اذن لماذا أتى الى هنا في الدرجة الأولى؟

ـ بناء على رغبة وزارة الخارجية. ان التحالفات السياسية تقوم على أساس التبادل التكنولوجي تماماً مثل التبادل التجاري. لم يكن سهلا على جيلز الرفض... خاصة عندما اشار رئيس الوزراء الى اهمية هذه المسألة. ولا شك ان هذه المهمة كلفته سعادته.

انتصبت أذنا ابيا فضولا وتابعت العجوز:

ـ وأنا أعتقد انه في عمق اعماقه لم يؤمن ان فيكي كانت تعني كل كلمة تقولها. وهذا كان رأيي ايضا. اعتبرت انها تمارس بعض الألاعيب النسائية المعهودة وان جشعها سيتغلب عليها فتذعن له.

علقت ابيا بازدراء:

ـ لا بد ان كونه ابن اخيك قد جعله محط انظار النساء.

ـ وكونه ابن ابيه. لقد ورث شركة فارو للهندسة.

ومع ان ابيا لم تكن ملمة بالمسائل التجارية، فهي عرفت لتوها اسم هذه الشركة، وأدركت ان اتهامها لجيلز بانه يطمع في أموال عمته خطأ فادح.

قالت الآنسة بيتمان:

ـ لماذا تبتسمين؟

ترددت ابيا قليلا:

ـ تذكرت شيئاً ما قلته للسيد فارو هذا اليوم. لا نتفق كثيراً مع بعضنا، انه لا يثق بي.

ـ انه لا يثق بكل النساء، منذ ان خيبت فيكي آماله. مع ذلك حتى لو تزوجا فلا أظن انهما كانا سيجدان السعادة معاً. كانت دائماً تلك المرأة الخبيثة، ولا بد له من اكتشاف حقيقتها آجلا ام عاجلا. ان جيلز، رغم مظهره الصارم، رجل عاطفي جداً.

كان من الصعب على ابيا تصور ذلك، فلم تتعب نفسها بصدد هذا الموضوع. ربما ان جيلز فارو رجل ذو أوصاف عديدة، ولكنه حتماً ليس عاطفياً. سألتها ابيا وقد ازداد فضولها:

ـ هل كانت جميلة؟

ـ كانت جميلة للغاية، وتتمتع بمزايا أخاذة، وجاذبية عرفت كيف تستخدمها. وربما لهذه الأسباب توقعت من جيلز تنفيذ كل مطالبها. وعندما أبى، وقال انه مسافر الى الهند، قررت فسخ الخطوبة. يا لجيلز المسكين، أثرت عليه هذه الحادثة كثيراً.

ـ لماذا رفضت المجيء الى هنا؟ اعرف ان بومباي حارة، ولكن...

ـ كان يفترض ان يقضي بعض الأشهر الأولى من اقامته خارج بومباي، ما عدا بعض الزيارات المتقطعة. ادرك ان عليه قضاء معظم هذه الفترة متنقلا بين كلكتا ودلهي ومناطق شمالية اخرى من البلاد. ولا أخفي عنك ان حياة كهذه ليست شهر عسل مثالياً بالنسبة الى عروس. مع ذلك أنا متأكدة ان جيلز كان رتب بعض الأمور لو وافقت فيكي على الذهاب معه. لم تجد مسألة العيش في موقع جبلي بعيد تتماشى مع أحلامها. فهي اما ان تكون سيدة الدوائر الدبلوماسية في دلهي او نجمة التجار الأغنياء في بومباي، او فالأفضل

لها ان تظل حيث هي . وهكذا تزوجت مليونيراً اميركياً بعد مرور أقل من شهرين على فسخ خطوبتها من جيلز. وصار يشعر بالمرارة والتعاسة منذ ذلك الوقت.

ـ تظنين انه ما يزال يحبها؟

ـ لو كان الأمر عكس ذلك، لما اعتصم بالصمت طوال هذه المدة.

شق على ابيا تخيل جيلز فارو، الرجل الفظ، مجرد عاشق هائم دامي الفؤاد لا يجرؤ على الانتقام. ولكن ما قالته الآنسة بيتمان يلغي أي خيار آخر. وليس من المستبعد طبعاً ان ردة فعله هي نتيجة الكرامة الجريح اكثر من الحب المتوقد. انه يقدر نفسه الى أقصى حد مما جعل تخلي خطيبته عنه تجربة مدمرة له.

سألتها العجوز:

ـ بماذا تفكرين؟ تبدو عليك امارات الشك.

أقرّت ابيا:

ـ أحاول ان اتصور ابن اخيك وفق رأيك فيه، لكن انطباعي عنه يحول دون ذلك. أستطيع ان ألمس سبب مرارته وبؤسه، مع ان تحوله الى انسان حاقد دليل عدم نضج في شخصيته.

خيم صمت طويل، وخالت ابيا انها تمادت في الحديث حول جيلز، وجرحت مشاعر عمته. كادت ان تعتذر منها عندما فتحت العجوز فاها:

ـ هذا هو رأيك اذن؟ لو قال له أي انسان ذلك لما صدق كلمة من أقواله.

ـ انه سيكتشف الحقيقة بنفسه يوماً ما.

ـ فقط عندما يقع في الحب مرة أخرى.

ـ أود لو اشهد هذا المنظر!

ابتسمت الآنسة بيتمان:

ـ أتمنى ذلك.

٧ـ قالت له: «طالما انك توجه الي اهانة كلما تحدثنا، فأرجوك ان تتجنب الكلام معي قدر الامكان». فأجاب: «هل تزعجك الحقيقة؟».

ساورت ابيا الشكوك حول ذهابها الى اوديبور والتخلي عن الآنسة بيتمان. لكنها عللت نفسها ان جيلز فارو، رغم افكاره المعوجة، يضمر حباً عميقاً لعمته، وسيبذل جهده في الاعتناء بها.

وهكذا دخلت الطمأنينة الى قلبها، وتمتعت باقامتها في ذلك الفندق القديم المطل على بحيرة اصطناعية كبيرة تشكل أحد معالم المدينة البارزة، وكان يقع وسط عدد من بحيرات شبيهة. انه قصر مهاراجه الصيفي الذي اضحى فندقاً الآن. وفي ذلك الفندق اقام مسافرو الدرجة الأولى. اما ابيا فنزلت في «قصر الشتاء» الذي وجدته مصدر غبطة دائمة. كانت تزينه الواح الزجاج الملونة وفسيفساء الخزف، وضم متحفه الخاص أروع مجموعة من

الرسوم والمنمنمات.

وبدا السوق ايضاً يفيض حيوية، فراحت تتنقل من حانوت صغير الى آخر، تراقب الصاغة يصنعون أدق القلادات والأساور التي تتبرج بها النساء الهنديات. ولم تستطع تمالك نفسها فاشترت قلادة متلألئة ادهشها ثمنها البخس، فابتاعت معها سواراً لمعصمها.

وكانت تمر في مخيلتها من وقت لآخر صورة الآنسة بيتمان وابن أخيها. وازدادت دقات قلبها اضطراباً ذات مرة عندما لمحت شاباً طويلاً. الى ان استدار فادركت انه رجل غريب. وما استساغت فكرة اقامتها في منزله في بومباي، فقررت تجاهل الموضوع مؤقتاً. ستدرس المسألة عند ذهابها الى هناك.

علت الدهشة وجه الدليل السياحي شيران عندما انبأته انها ستتخلى عن افراد مجموعتها فور وصولها الى بومباي. خال انه ارتكب خطأ ما، فسارعت الى طمأنته والتأكيد له ان المسألة لا علاقة لها به. اوضحت له:

ـ سأعمل لدى الآنسة بيتمان. ومن الأفضل ان أقيم معها.

علق السيد شيران:

ـ اذن اتمنى لك التوفيق. ولي كامل الثقة ان منزل السيد فارو سيكون أفضل بكثير من الفندق.

فضلت ابيا عدم التعليق، فهي تحاول طرد شبح هذا الرجل الكريه من ذهنها، ولا فائدة من التحدث عنه.

وهكذا وصلت الى بومباي ظهر اليوم التالي عقب رحلة رتيبة في الطائرة فوق صحراء قاحلة. غير ان المطار كان يزدحم بالناس المتشرين في كل زاوية. وكان معظمهم يجلس على الأرض غير عابىء بثيابه الانيقة وذلك في انتظار حجز مقاعد على الطائرة الداخلية الوحيدة.

ارسل جيلز فارو سيارة ليموزين لنقلها من المطار. كان السائق يرتدي بذلة رمادية ويطلق لحية سوداء مجعدة، ويعتمر عمامة.

وفاجأها باتقانه اللغة الانكليزية حيث راح يفسر لها كل المعالم والمناظر التي يمران بقربها او عبرها، وهما في طريقهما الى المدينة.

وارتفعت على جانبي الطريق الرئيسي بنايات اسمنت شاهقة بدت مثل أحياء الفقراء ذات الاكواخ المتواضعة، مع فارق الحداثة والمظهر. احست ابيا بقلق عميق وهي تتأمل أحياء البؤس الممتدة وراء جدران تحاول سترها وحجبها بدون طائل. وازعجها ان هذه الاحياء تقوم وسط مجتمع بومباي التجاري المزدهر، وكأنها الدليل الساطع على قساوة الانسان تجاه أخيه الانسان.

سألت السائق في محاولة التغاضي عن الفقر المحيط بها:

ـ هل يقطن السيد فارو في المدينة نفسها؟

ـ نعم يا سيدتي. انه يقطن في حي تلة ماليبار. انه من أجمل أحياء بومباي.

هذا ما توقعته من السيد فارو، يختار الأفضل والاحسن لنفسه. فكرت ابيا صامتة وكأنها تنتقده وتنتقد نفسها في آن معاً. فهي بعد ان اطلعت على سبب تصرفاته الرعناء، عليها ان تتفهم وضعه وتتجاهل فظاظة مراسه. قال السائق:

ـ نكاد ان نصل.

وانطلقت السيارة وسط طريق تحيط بها الاشجار الباسقة، ويترامى البحر على جانبها الايمن. وكانت مدينة بومباي مبنية على جزر متعددة موصولة بممرات معبّدة حيث يلمح المرء من وقت لآخر مياه المحيط الهندي تتلألأ في البعيد. ابطأت السيارة سرعتها وهما يمران عبر بوابتين من الحديد، وانعطفت في درب جانبي حيث توقفت أمام منزل مكون من ثلاث طبقات.

وادركت ابيا لتوها ان المنزل كان ذات يوم قصراً فخماً. وما ان صعدت الدرجات الرخامية واصبحت داخل البهو المربع العريض حتى ازداد يقينها. وأطل جيلز فارو بقامته الفارعة حيث تقدم منها وعيناه تلمعان لمعاناً عجيباً. خفق قلبها باضطراب، وهي تنظر اليه

يحدجها بوجه بارد، باهت. سألها بخفة:

- هل كانت رحلتك مريحة؟

- نعم. شكراً.

استطرد وهو يتوجه نحو الابواب الزجاجية في آخر البهو:

- عمتي في الحديقة.

تمنت ابيا لو تمضي الى غرفتها أولاً لاستعادة بعض نشاطها، لكنها رفضت ان تتقدم اليه بأي طلب. كان رجلاً بالغ الاهمال رغم آراء عمته عنه، والى حد جعله لا يلاحظ حرارة الجو والتصاق ملابسها بجسمها وتصبب عرقها. فكت قبّة فستانها قليلاً، وسارت وراءه على مضض.

كان يرتدي بذلة رسمية رمادية وربطة عنق سوداء، وخالته يرتدي الملابس الرسمية اياها حتى ولو كان يتناول طعامه وحيداً وسط الادغال. تراقصت غمازة رقيقة في وجنتيها، فعضت شفتها لتحول دون غرقها في قهقهة عالية. فتح الأبواب الزجاجية، وقادها عبر حديقة خضراء في اتجاه حوض سباحة. كانت الآنسة بيتمان تجلس على الحافة، تتقي الشمس تحت مظلة مخططة بالالوان البيضاء والزرقاء. كانت تضع فوق طاولة أمامها أبريقاً من عصير الفاكهة المبرد وعدداً من الاكواب، اضافة الى آلة تسجيل ودفتر.

رحبت العجوز بأبيا قائلة:

- ها قد باشرت بالعمل كما تلاحظين. لا تصدقي من يقول لك ان الابداع يموت مع التقدم في السن. وأنا أهم دليل على ذلك.

أعلن ابن اخيها مازحاً:

- لكنك ظاهرة فريدة من نوعها!

- اذا كان الاحتفاظ بالصحة والعافية ومحبة العمل ظاهرة فريدة فانت على حق. لكن كثيرين من الناس يتخذون اعمارهم ذريعة للتكاسل وعدم انتاج أي شيء. اياك ان تقع في هذا الفخ يا جيلز. ان القيام بعمل نتمتع به يحافظ على نضارة الشباب.

قال متسائلاً:

- لكن كم من الناس يتمتعون بعملهم؟

- انت تتمتع بعملك، فلا تتظاهر بعكس ذلك. اظن بعض الاحيان انك جعلته بديلاً لأي شيء آخر.

قال مشيحاً بوجهه:

- انه قرار اتخذته منذ عدة سنوات.

ألقت عمته نظرة سريعة على أبيا، ثم ركزت على ابن اخيها ثانية:

- هل تنوي ان تعيش بقية حياتك كرجل عازب؟

- هذا ما أنوي فعله.

- وماذا ستفعل بشركة فارو للهندسة والأموال التي سترثها مني؟

قال بصوت جاف:

- ثمة جمعيات خيرية كثيرة تستحق التبرعات. والآن أود انهاء بعض الأعمال.

أجابت عمته باستياء:

- يا لحدة الطباع! هل ستتناول غداءك هنا اليوم؟

- كلا سأراك وقت العشاء.

- ولكنك ستصحبنا الى حفلة شاندريس؟

تساءل:

- هل تعافيت تماماً للذهاب الى الحفلة؟

- لماذا تريد تحويلي الى امرأة عاجزة! ما التقيت بعائلة شاندريس منذ وجودهم في لندن، واتوق شوقاً لرؤية العائلة مرة أخرى.

- يمكنني دعوة العائلة لتناول العشاء معنا.

استشاطت العجوز غيظاً:

- بالله عليك، أريد الخروج وزيارة الناس.

هز بكتفيه تأففاً ومضى في سبيله، فجلست ابيا على احد الكراسي. وافترضت انها بدأت عملها منذ تلك اللحظة، مع ان واجباتها لم تكن محددة. ذكرت الآنسة بيتمان شيئاً حول الشغل

كسكرتيرة، فهل آلة التسجيل لها علاقة بالموضوع؟

قالت:

- اذا كانت توجد آلة كاتبة فسأباشر نسخ الشريط.

علت ابتسامة وجه العجوز المتجعد:

- الآن اثناء الاجازة؟ هل تظنين انني تاجرة رقيق يا ابنتي؟ ان رحلتك الخاصة بدأت الآن بعد ان ألغيت رحلتك مع شركة كينغ السياحية.

اندهشت ابيا:

- رحلتي الخاصة؟ ماذا تقصدين؟

تألقت عينا العجوز السوداوان:

- لا بأس. اعتبريها سراً خفياً، فأنا كاتبة روايات بوليسية، ويحق لي ان أكون غامضة.

ساورت ابيا الشكوك:

- سأكون اكثر سعادة لو قمت ببعض الاعمال وأنا هنا، والا شعرت بالذنب لعدم بقائي في فندق.

حدجتها الأنسة بيتمان:

- ما هذا الهراء؟ حسناً. سأساعدك على تخفيف وطأة الشعور بالذنب. أول شيء أريده منك، اذا كنت ترغبين فعلاً في العمل معي، هو ان تطيعيني طاعة مطلقة وتامة.

ادركت ابيا مغزى ما يكمن وراء هذا العبارة، وان الأنسة بيتمان لا ترغب في الافصاح عنه. افتر ثغرها:

- انك عجوز ديكتاتورية. سأطيعك اذا وجدت الأوامر ملائمة لي.

تنهدت الأنسة بيتمان:

- يبدو انني استخدمت فتاة سليطة اللسان! لكن لا بأس، لديك حسنات وايجابيات اخرى كثيرة. واتمنى لو يستطيع جيلز اكتشاف بعض هذه الايجابيات.

توردت وجنتا ابيا وبدلت الموضوع بسرعة:

- ماذا جرى لسكرتيرتك السابقة؟

- سرقت بعض الدراهم وولت الادبار. كانت في حاجة ماسة الى الدراهم، وليس من أجل نفسها، من اجل رجل نذل تعرفه. كنت اتمنى ان تظل معي بعض الوقت لتكتشف حقيقة هذا الوغد، ولكنها لم تفعل للأسف الشديد.

- ماذا جرى لها؟ هل استعدت الدراهم؟

- لم أحاول استعادتها. ألحّ علي جيلز لرفع دعوى في المحكمة، فأبيت. ان الدراهم التي سرقتها ضئيلة جداً بالنسبة الي، ويبدو انها في حاجة ماسة الى الحصول عليها.

سألت ابيا:

- يا لك من امرأة غفورة طيبة القلب.

- لم لا؟ هي التي ستتضرر في نهاية الأمر!

استوعبت ابيا هذا القول ثم قالت:

- اذهلني استخدامك لي بدون أية توصيات.

- انك شفافة كالزجاج يا عزيزتي!

- يا له من تعبير يدل على مدى غبائي!

توهجت عينا العجوز:

- لم أقل انك زجاج عادي غير مزخرف.

قهقهت ابيا وقفزت على قدميها. مضت الى حوض السباحة. وألقى جسمها ظلاً فوق المياه، وانساب نسيم هادىء يلاعب مويجات صغيرة، فتمعج ظلها قليلاً.

قالت وهي تشق الهواء بذراعيها:

- يا ليتني كنت طويلة القامة شقراء ومثيرة عوض هذا المنظر البائس كالفأرة.

انبتها الأنسة بيتمان:

- لست فأرة عادية، بل فأرة ذات شعر ذهبي وعينين بنيتين

حالتين. كفي عن الاستخفاف بنفسك! أتيت على ذكر كل هذا من قبل.

مسحت ابيا جبينها المتصبب عرقاً:

ـ ان الطقس حار. هل استطيع ارتداء ملابس خفيفة؟

ـ اذهبي عبر الحديقة الى المطبخ. ستجدين انديرا هناك. انها الطاهية ومدبرة المنزل.

اعجبت ابيا الفكرة وسارت بجانب الجدران الرخامية الى ان تنشقت رائحة الطعام فادركت اقترابها من المطبخ. كان الباب الخلفي مشرعاً، وتقف فتاة هندية في الوسط منكبة على سحق التوابل بمدقة الهاون. لمحت ابيا، فابتسمت بحياء، ونادت بصوت اقرب الى الفحيح حيث ظهرت على الفور امرأة سمينة من وراء باب الخزانة. استفهمت:

ـ نعم يا آنسة، هل تريدين شرب الشاي؟

قالت ابيا بمرح:

ـ لا شكراً. ابحث عن غرفة نومي. أنا سكرتيرة الآنسة بيتمان وقالت لي ان اسأل عن انديرا.

قالت المرأة السمينة:

ـ أنا انديرا.

وقادت ابيا عبر المطبخ الكبير الى البهو الرئيسي. صاحت بصوت جهوري، فهرع على اثره خادم مطيع. قالت له:

ـ خذ الآنسة الى غرفتها فوراً.

طأطأ رأسه وصعد مع ابيا السلم الرخامي اللولبي الى ان بلغا غرفة نوم واسعة مطلة على الحديقة. بدت قطع الاثاث ضخمة مثل الغرفة التي تضمها، وخاصة ذلك السرير الذي يتسع لعائلة بأكملها، وتلك الخزانة الهائلة التي تبتلع كل ما تملكه ابيا، علاوة على اثاث الغرفة. وتدلت فوق النوافذ ستائر ذهبية مطرزة تلامس اطرافها سجادات هندية سميكة. ويؤدي باب في الجهة اليسرى الى

غرفة حمام يربض فيها حوض كبير وتنتصب قربه مغسلة ذات حنفيات مطلية بالذهب تنسجم ألوانها مع المناشف الصفر.

خلعت ابيا ملابسها بسرعة واستحمت، ثم ارتدت فستاناً جديداً خفيفاً وعادت الى الحديقة حيث كانت الآنسة بيتمان منكبة على دفترها تسجل فيه افكارها.

سألتها:

ـ ما رأيك بهذا العنوان: «جريمة قتل بفقاعة هواء»؟

اجابت ابيا بسرعة:

ـ ان القتل لا يروق لي ابداً.

وبدا على وجهها القرف، فضحكت العجوز:

ـ لست اذن من المعجبات برواياتي؟

ـ أنا معجبة برواياتك. ولكن اقرأ كتبك شغفاً بوصفك للاشخاص اكثر من جرائم القتل التي يرتكبونها.

اطبقت دفتي الدفتر بحدة:

ـ هذا ما يقوله جيلز أيضاً. اتمنى ان ترتدي فستاناً جميلاً هذا المساء يا ابيا. تقيم عائلة شاندريس دائماً حفلات بهيجة، وأنا متأكدة انك ستقضين وقتاً ممتعاً.

سألتها ابيا متوجسة:

ـ هل تفكرين باصطحابي معك؟

تمعنت في قسمات وجهها:

ـ طبعاً. انت رفيقة وسكرتيرة، واتوقع منك مصاحبتي حيثما اذهب. ستبدين رائعة في ثوب هندي! هل انت مستعدة لارتداء الساري؟

سألت ابيا:

ـ كيف ستكون ردة فعل الهنود؟

ـ سيطيرون فرحاً.

ـ اذن الجواب نعم.

قالت الآنسة بيتمان:

ـ عندي عدة أنواع من هذه الأزياء. وكلها مجرد قطع طويلة من القماش، أربعة أو خمسة أمتار. عليك ارتداء بلوزة، وتنورة ملائمة. سأطلب من **لالا** اخذ قياسك والمباشرة بالخياطة.

استفسرت ابيا:

ـ لالا؟

ـ الخادمة في الطابق العلوي. انها خياطة بارعة. هيا بنا يا ابنتي.

ازداد فضول ابيا وهي تترقب هذه المفاجأة السارة، ولحقت بالآنسة بيتمان الى غرفة نومها حيث رنت جرساً فظهرت فتاة هندية هيفاء القوام. كانت تكبر ابيا ببضع سنوات، وذات ملامح بالغة النعومة وكأنها احدى المنمنمات التي تزين جدران الغرفة. ابلغتها العجوز كل ما هو مطلوب منها، فاختفت عن الانظار ثم رجعت تحمل شريط قياس. اخذت مقاييس ابيا برشاقة فائقة، امعنت فيها النظر ثم غادرت.

ابتسمت العجوز قائلة:

ـ ستكون البلوزة والتنورة جاهزتين عند الساعة الخامسة هذا المساء. والآن اختاري لون الساري.

واشارت الى صندوق كبير مصنوع من خشب داكن مرصع بالعاج مثل تحفة اثرية. فتحته ابيا باعتناء، وشهقت فرحاً وهي ترى الاقمشة المزركشة في داخله كأنها جواهر براقة. تمتمت:

ـ لا أعرف ماذا اختار.

اقتربت منها العجوز قائلة:

ـ فلأساعدك اذن.

وسحبت قطعة حريرية وردية الألوان مطرزة بلون ذهبي. رفعتها عالياً أمام عيني ابيا:

ـ هذا اللون يلائم بشرتك تماماً. انه يضفي عليك وهجاً خاصاً.

استدارت ابيا نحو المرآة تتأمل قطعة القماش فوق جسمها. لم

يسعفها خيالها على تصورها فستاناً من الساري، فقررت تقبل رأي العجوز.

وتأكد لها في المساء ان اختيار ذلك اللون كان اختياراً مثالياً. نعم انه يضفي على بشرتها وهجاً خاصاً وتلفت النظر طبيعته اللؤلؤية. وحتى شعرها بدا أكثر لمعاناً تضيء ضفائره ببريق ذهبي خلاب. وهكذا خلقت الخادمة لالا من قطعة قماش ثوباً فضفاضاً يلف جسمها بأناقة مدهشة لم تألفها من قبل. قالت لالا بصوتها الرخيم:

ـ يذهلك عدد النساء الاوروبيات اللاتي يعشقن ارتداء الساري، ولكنه لا يلائم معظمهن. اما انت فيلائمك جداً لرشاقة قوامك.

تقبلت ابيا هذا الاطراء وهي تعرف مغزاه الحقيقي. ابتسمت:

ـ سأحاول تبني مشية تلائم الساري، فلا احرك ذراعي كثيراً.

خطت ابيا بضع خطوات متعثرة، فحدجتها الفتاة الهندية ثم اطلقت ضحكة رنانة. قالت:

ـ عظيم. عظيم. انت الآن سيدة هندية متكاملة.

استدارت ابيا نحو المرآة واخذت تمعن النظر في ثوبها:

ـ ما زال يعوزه شيء ما. ولا أدري ما هو.

ومدت لالا لتوّها يدها نحو عنقها واذنيها ونزعت بسرعة قلادة الذهب والاقراط المتدلية الطويلة واعطتها لابيا قائلة:

ـ خذيها على سبيل الاعارة. هذا ما ينقصك.

قبلت ابيا عرضها بدون تردد وادركت كم هي صائبة فوراً. ابتسمت:

ـ هذه بادرة لطيفة منك. شكراً.

قالت لالا:

ـ سأخبرك غداً اين يمكنك شراء جواهر مماثلة. انها ليست باهظة الثمن.

ـ ولكنها توحي بالتبرج مع فستان غربي. ولا أنوي لبس الساري

مرة ثانية.

- يمكنك شراء شيء أبسط. انك تبدين رائعة في هذه المجوهرات.

سألتها مشيرة الى القلادة حول عنقها:

- الا يدل هذا النوع من المجوهرات على ان المرأة متزوجة؟

حنت لالا رأسها كاشفة عن علامة حمراء في أعلى جبهتها، قالت:

- ليس دائماً. ان علامة كهذه برهان لا يخطىء.

أجابت ابيا بتعجب:

- لم أكن أعرف انك متزوجة.

- منذ احد عشر عاماً.

- هذا مستحيل. كم هو عمرك؟

- أربعة وعشرون عاماً. خطبني زوجي عندما كنت في الثالثة من عمري وعقدت زواجي عندما اصبحت في الثالثة عشرة.

نظرت ابيا الى لالا بحزن واشفاق. ما معنى حياة امرأة تعقد خطبتها على رجل لا تعرفه ثم تتزوجه وهي لم تبلغ سن الرشد؟ ارتأت ابيا الاعتصام بالصمت وهي فتاة أجنبية لا يجوز لها اثارة مواضيع كهذه. سألتها:

- هل عندك اولاد؟

- عندي صبيان. تتولى حماتي الاعتناء بهما اثناء النهار. وانت، ألست مخطوبة؟

طافت ابتسامة باهتة فوق ثغر ابيا:

- لا. لم أصادق احداً من الرجال بعد.

- وهل يقلقك ذلك؟

- لست قلقة حتى الآن. حصلت لتوي على وظيفة جديدة مع الآنسة بيتمان.

وكادت ان تشرح لها مدى انزعاجها من جيلز فارو، ثم قررت تجاهل الأمر مع لالا. الأفضل ان تنساه وكأنه غير موجود.

قالت لالا:

- ربما صادفك الحظ قريباً. ان هذا الساري سيجذب الانظار اليك.

- خاصة اذا زلّت قدمي في هذه التنورة!

انحنت باحترام، ومضت لالا في سبيلها، متهادية في مشيتها على نحو دفع ابيا الى تقليدها، محاولة التدرب على الأسلوب الهندي في السير. هبطت السلم الى غرفة الاستقبال. لم تجد احداً هناك فتنفست الصعداء. لم يشغل بالها رأي العجوز بل ما اعتادت سماعه من جيلز فارو. توجهت الى النافذة متوترة الاعصاب، وألقت نظرة على الحديقة شبه المعتمة. أحست بحركة خفيفة. استدارت لترى الرجل الذي كان يشغل افكارها.

انتصب امامها ببذلة ضاربة الى السواد، وقميص حريري شفاف. وعبق في جو الغرفة عبير عطر منعش وهو يتقدم منها، فاحست بوجوده اكثر من أي وقت مضى، وكأن تفرسه في وجهها زادها ادراكاً لكل اشارة تصدر عنه.

قال أخيراً:

- يا للعجب! تحولت الفأرة العادية الى فراشة زاهية الألوان.

- أشعر وكأني شخص آخر.

- ربما اصبحت هكذا منذ الآن فصاعداً. هل هذه هدية من عمتي؟

- يا لك من رجل حاذق!

- انها ليست الحذاقة يا آنسة وست. هذه هي عادة عمتي المزمنة. تجمع اللقطاء مثل التقاط الكلب للبراغيث. وتنفق عليهم كل ما تستطيعه، ثم تجلس لتلقي الصدمات ونكران الجميل.

وانهارت كل محاولات ابيا في السيطرة على اعصابها امام هذا الهجوم الدنيء. قالت:

- طالما انك توجه الي اهانة كلما تحدثنا، فارجوك ان تتجنب الكلام

معي قدر الامكان.

- هل تزعجك الحقيقة؟

ردت:

- لا. يزعجني ان تصدر علي احكامك نتيجة سلبيات الآخرين.

ارتسمت امارات الغضب على وجهه، فاتكأ على كرسي وراءه، واضعاً يده في جيب سترته:

- لا أؤمن ان المودّة تباع وتشترى كالسلعة، وكذلك الولاء.

قالت:

- هذا هو رأيي. ان المودة الحقيقية لا تشترى بل تنبثق عفوياً.

- تماماً مثل علاقتك بعمتي؟

قالت متحدية:

- لا اعرف عمتك مدة كافية لأشعر بالولاء او المودة لها. لا تحاول نصب شرك لي بالتحذلق علي. انت تظن ان اعتنائي بعمتك في أغرا تكمن وراءه نوايا خفية. ولكن هذه هي طبيعتي. كنت أعتنيت بأي انسان في وضع كهذا، حتى انت.

تقوس حاجباه:

- يا لك من ملاك طاهر. سأتذكرك عندما احتاج اليك.

كادت ان تخرج من الغرفة حتى عندما رأته يستدير ليرحب بعمته. وبدت بثوبها الحريري الاسود الطويل اكثر اناقة من اي وقت مضى، ورغم رفعها طرف الفستان حيث كشفت عن انتعالها حذاءها الاسود المعتاد. قالت العجوز:

- الراحة أهم من الزي السائد. انك في غاية الجمال يا عزيزتي ابيا. الا توافق يا جيلز؟

- لا يمكن القول ان الآنسة ابيا وست جميلة.

- يا لك من رجل فظ القلب! كيف تصفها اذن؟

انتظرت ابيا جوابه محمرة الوجنتين. لاح بريق ابتسامة ساخرة حول فمه، وسمر عينيه الواسعتين محدقاً فيها، ثم تكلم متوجهاً

بالحديث الى عمته:

- أصفها بقولي انها شمعة صغيرة وردية اللون. ذلك النوع من الشموع الذي يضاء في المياكل.

سألت العجوز ابيا:

- وما رأيك في هذا الاطراء يا عزيزتي؟

- أظن ان السيد فارو يعني انني سأذوب كالشمعة واضمحل من الوجود.

عاتبته عمته بخفة:

- هل هذا صحيح يا جيلز؟

- لا ابالي كثيراً بما يطرأ على وضع الآنسة وست.

خرج صوت جيلز فارو باهتاً غير عابىء بما تعاني منه أبيا، فتاقت الى صفع وجهه بقوة. لم يسبق لأي رجل ان اثار فيها كل هذا الغضب من قبل.

- من الأفضل ان نغادر الآن.

قالها بكل هدوء، وسار امامها نحو السيارة المنتظرة في الخارج.

٨ ـ انفجر الشجار بينهما مثل عاصفة صيفية بدون انذار، واضمحل بنفس السرعة. كم تتمنى لو ان جيلز فارو لا يتمتع بتلك القدرة العجيبة التي تجعلها تكرهه وتشفق عليه في آن معاً!

كانت عائلة شاندريس تقطن في شقة حديثة تقع في احد احياء بومباي الراقية الممتدة قرب الشاطىء المطل على المحيط الهندي. انزلقت سيارة جيلز فارو فوق الطريق المنحدر من تلة مالابار، وانعطفت حول الجنائن المعلقة، شمالاً، فتراءت مدينة بومباي منبسطة في الأسفل.

وعندما انعطفت سيارة الليموزين مرة ثانية لمحت ابيا السور العالي الذي تقع وراءه «ابراج الصمت». هناك يترك البعض موتاهم في العراء لتلتهمهم الطيور الكاسرة، وفق ما قاله جيلز فارو. وأضاف ان الطيور تنظف الجسم تنظيفاً في اقل من ساعة.

اقشعر بدن ابيا، فطمأنتها العجوز الآنسة بيتمان:

ـ اعرف انها عادة بربرية بالنسبة الينا. غير انهم يحترمون كل عوامل الطبيعة، بما فيها النار والتراب. ولهذا السبب لا يدنسون الأرض بجثثهم ولا يحرقونها.

احتجت ابيا:

ـ ولكن هل من الضروري اقامة مدافنهم وسط المدينة؟

ادلى جيلز بدلوه مجدداً:

ـ ان للمال قوة لا تقهر. اصحاب هذا المبدأ شيدوا تجارة بومباي وصناعتها. ولا يوجد منهم سوى مائة وخمسة عشر الف في الهند، وهذا عدد ضئيل في بلد يبلغ عدد سكانه اكثر من خمسماية مليون. مع ذلك يشكل اتباعهم رجال الأعمال الرئيسيين ويملكون اضخم الثروات.

استطردت ابيا:

ـ اذن باستطاعتهم نقل مأوى موتاهم الى مكان آخر.

ـ لا شك انك على حق يا آنسة وست. غير ان التقاليد لا تزول بسهولة، والأرجح ان «ابراج الصمت» ستظل حيث هي لمدة طويلة من الزمن.

اعتصمت ابيا بالصمت وركزت انتباهها على المناظر الخارجية. كانوا يمرون بجانب الشاطىء حيث ترتفع صفوف البنايات السكنية كناطحات السحاب، حديثة، ومصنوعة من الاسمنت المسلح بخلاف المباني ذات الطراز الانكليزي المنتشرة في احياء المدينة الداخلية.

كان الناس يتهادون في نزهة مسائية، او يتدافعون في طريق عودتهم من اعمالهم. واخترقت السيارة تلك الهضبة مسرعة الى ان توقفت امام بناية حديثة، تكاد تناطح سماء بومباي ارتفاعاً.

ترجلوا من السيارة وسط جو يعبق بالرطوبة وهواء البحر، ودخلوا عبر ابواب زجاجية يغيب وراءها الفقر وينكفىء الى عالم آخر. علقت الآنسة بيتمان:

- عائلة شاندريس بنت هذه العمارة، ويسكن افرادها في الطوابق العليا.

هتفت ابيا:

- لا بد انها عائلة كبيرة.

- تزوج كل اولادهم ولا يسكنون معهم.

- كنت اظن ان بعض الأولاد يعيشون مع اهلهم؟

- ليس في العائلات الغنية وخاصة العائلات ذات العادات الغربية. ان العائلات .الفقيرة تضطرها الظروف لاقتسام شقة صغيرة، ولا يدل ذلك على وجود اية محبة أو مودة. وليس لدى السيد شاندريس وزوجته سوى ولدين، وكلاهما يعملان مع الأمم المتحدة في نيويورك.

دخلت ابيا المصعد، وهي غير مقتنعة تماماً. وصلوا الى الطابق الأعلى. قالت الآنسة بيتمان، وقد امتدت امامها مصطبة رحبة يتوسطها حوض سباحة وحديقة متقنة:

- عندما تهب الرياح الموسمية تهبط العائلة الى الطابق الأسفل، وهو مسقوف طبعاً.

ابتسمت ابيا:

- مدخل صيفي وآخر شتائي. اراهن ان لديهم حمامات منفصلة ايضاً.

- نعم. هذا صحيح.

ومضت العجوز مع ابن اخيها وابيا في اتجاه حلقة من الناس فأفسحوا امامهم الطريق لالقاء التحية على الزوجين اللذين وقفا في الوسط.

كان السيد شاندريس رجلاً اشيب الشعر ممتلىء الجسم شاحب البشرة قليلاً، تغور عيناه في وجهه. وبدت زوجته امرأة لبقة خط الشيب رأسها، ذات بشرة تميل الى البياض، وترتدي سارياً ابيض بالغ البساطة، يضفي اناقة باهرة على المجوهرات المتلألئة حول

عنقها والمتدلية من اذنيها.

تحدث كلاهما بانكليزية سليمة تصحبها تلك اللهجة الهندية المألوفة. ثم تقدم شاب اسمر من ابيا ورافقها الى اطباق الطعام والحلوى وأكواب المرطبات.

كان اسم الشاب الأسمر جاي، ويعمل كمحاسب في احدى شركات السيد شاندريس، وتمت بصلة القرابة الى العائلة، ويعرف معظم الضيوف الموجودين. اشار بفخر الى عدد من الأعيان الهنود، ونجمين سينمائيين، اعتبرتهما ابيا بمقاييسها الأوروبية مفرطي الوزن، قبيحي المظهر.

ضمت الحفلة اكثر من مائة شخص، لكن اتساع المصطبة والغرف جعل العدد يبدو ضئيلاً نسبياً. وكانت ارتال الخدم تغدو وتروح بين الضيوف حاملة شتى المآكل والمرطبات. قدم المحاسب جاي كوباً من العصير لابيا، فشكرته، تسأله عن حياته وعمله. قال:

- نلت شهادة الليسانس من جامعة لندن. وأعيش الآن مع عمي، وهو رجل ورع.

- وأنت؟

- احاول ان اقتفي خطاه.

ضحك، فضحكت وهي تفكر في تلك القلنسوات البيضاء التي يعتمرها معظم المدعوين. اوضح قائلاً:

- هذا يدل على ان صاحب القلنسوة عضو في حزب المؤتمر الحاكم.

اما النساء الهنديات فكن يرتدين الساري المزركش، ويتبرجن بالمجوهرات البراقة. كادت ابيا ان تعتذر لارتدائها الزي الهندي. طمأنها جاي:

- انه شرف عظيم لنا عندما ترتدي امرأة غربية الساري. وأنت انيقة جداً كما انت.

- شعرت بحرج شديد في البداية.

- لا تبالغي. تهاديت فوق المصطبة كطائر القطا أو بجعة البحيرة.

لو ابدى هذه الملاحظة ايطالي أو فرنسي لكان استمر في عملية الاطراء، اما صدوره عن رجل هندي، فهذا يعني نهاية الطريق حسب معلومات ابيا. فالرجال الهنود محتشمون جداً ويعاملون النساء بكل احترام وتحفظ بخلاف الأوروبيين. تعتبر المرأة في الهند محور البيت والعائلة، وبما ان الحياة العائلية بالغة الأهمية هنا، فلا عجب اذا ما نالت النساء التقدير والاحترام. وتذكرت ابيا ما قاله لها دليل سياحي في دلهي:

- اذا كان المرء سعيداً في بيته، فهو سيحب حتماً المرأة التي تساهم معه في بناء الحياة البيتية.

سألها المحاسب:

- هل تودين تناول شيء آخر؟

- لا. شكراً.

ومضى ليجلب بعض عصير الفاكهة لنفسه. كانت ابيا تراقبه عندما رأت بابي المصعد المذهبين ينفتحان ويبرز منهما عدد من الهنود. لمحت بينهم امرأة ورجلاً اوروبيين. لفت نظرها جمال المرأة الأخاذ. كانت طويلة القوام هيفاء كعصا من الخيزران، ويتماوج شعرها الناعم الداكن باغراء فائق. وبدت ملامحها تشبه ملامح احدى راقصات الباليه الروسيات، وتتهادى في مشيتها بلباقة ملهمة في ذلك الفستان الذهبي البسيط.

كان لون الفستان بلون عيني جيلز فارو تماماً، ولهذا السبب جالت ابيا بنظرها في الغرفة لتجده واقفاً هناك يتبادل اطراف الحديث مع السيد شاندريس وزوجته. اقتربت المرأة الأوروبية الفاتنة مع رفيقها الى ان اضحت على مرأى من جيلز. تبدل لونه فجأة وكأنه اصيب بصدمة. ورأته يتحول الى كتلة من الجماد.

سارت المرأة الأوروبية في اتجاه صاحب الدعوة، وابتسمت

ابتسامة خاطفة قبل ان تستدير صوب جيلز فارو. كان اقل توتراً الآن، مع ان ابيا شاهدته يطبق قبضته بإحكام وعصبية.

وأدركت لتوها ان هذه المرأة هي خطيبته السابقة، الفتاة التي رفضت الزواج منه لأنها استنكفت عن العيش في بلدة هندية نائية.

سألت ابيا جاي:

- من هما هذان الأوروبيان؟

- طوني لوتن وزوجته. انه احد اثرياء النفط. ويعقد هو وعمي شاندريس صفقات كثيرة. زوجته جميلة جداً، اليس كذلك؟

قالت ابيا متمهلة:

- نعم. جميلة جداً. ما هو اسمها الأول؟

- فيكتوريا. وهو اسم يلائمها لأنها انكليزية.

تمتمت ابيا:

- فيكتوريا.

وأيقنت انها فيكي عينها التي تحدثت عنها الآنسة بيتمان ذلك الصباح. نظرت صوب جيلز فارو مرة اخرى. كان يبتسم بارتياح يشوبه الحذر. ورأت نفسها بدون ارادة منها تهنئه على ادائه مقدرة الجهد الذي بذله ليظهر بمظهر طبيعي. ام انه كان على علم مسبق بمجيء خطيبته السابقة الى هنا؟ هذا مستحيل، فكرت ابيا وهي تتذكر امارات الوجل على محياه عندما دخلت فيكتوريا.

انضمت الآنسة بيتمان الى حلقة ابن اخيها. التقت عيناه بعيني ابيا، فرفعت يدها ملوحة. استأذنت ابيا من المحاسب الهندي واطاعت ايماءة العجوز. قالت الآنسة بيتمان عندما وقفت ابيا امامها:

- اقدم اليك السيد لوتن وزوجته فيكي التي هي صديقة العائلة.

تدخلت فيكتوريا:

- وكدت اكون احد افراد العائلة.

ودلت نظرات عينيها انها لم تحب وصف العجوز لها. قالت هذه

الأخيرة بعد ان لاحظت ازعاجها:

- وكعضو مقرب من العائلة اود ان اقدم اليك الفتاة العزيزة التي انقذتني عندما المت بي وعكة صحية في اغرا.

ظلت فيكي لوتن مشدودة الأعصاب، متصلبة الوجه، وهي تتشدق قائلة:

- اذن كنت الملاك الحارس. وقيل لي انك تعملين مع العمة بيتمان. يا لك من فتاة حذقة!

احتارت ابيا في كيفية الرد عليها. لمست موجة من العداء تتصاعد من اقوالها، وتساءلت عن السبب الكامن وراءها. وتلقت الجواب فوراً، اذ استدارت فيكي ونظرت الى جيلز مباشرة:

- انصحك بالاحتراس. يبدو ان عمتك تبحث لك عن شريكة حياة!

قال بهدوء:

- انا دائم الاحتراس.

- هل تعني انني كنت الوحيدة التي نجحت في اختراق خطوط دفاعك؟

صدمت ابيا من فظاظة هذه المرأة، فأشاحت بوجهها وابتعدت عنها. لكنها استطاعت ان تلتقط كلمات جيلز وهو يجيبها بمنتهى البرودة:

- لم اكن محترساً عندما تعرفت اليك. اما الآن فالأمر مختلف.

قالت فيكي بصوت شبه خافت:

- جعلتني اشعر بالذنب. هل صفحت عني؟

- صفحت عنك على الفور. لا يمكن للمرء لوم ولد اذا ما ارتكب خطأ خاصة اذا كان الولد يجهل معنى الصواب.

تأوهت فيكي وكأنها تعبر عن غضبها وتبرمها. وما لبثت ان ادارت ظهرها. وعندها فقط اتجه جيلز فارو صوب ابيا:

- ارجو ان تكوني مستمتعة بالحفلة يا آنسة وست.

- نعم. انا مستمتعة كثيراً. هذه هي المرة الأولى التي ازور فيها

بيتاً هندياً.

بدا جوابها طريفاً بعض الشيء، اذ عوج فمه قائلاً:

- انه بيت بالكاد يمثل نموذج المنزل الهندي. وهذا بيت عالمي لا جنسية له.

احتجت ابيا وهي تجيل النظر في الغرفة الرحبة المفروشة بالسجاد الزاهي والمزينة بالآنية والمصابيح المتعددة الألوان:

- لا. انت تبالغ!

اجاب:

- ان السجادات الكشميرية وبعض الفسيفساء لا تكفي كدليل على وجود البيت الهندي. ان بيتي اقرب الى الطابع الهندي من هذا، لأن المهاراجه الذي يملكه لم يتأثر بالذوق الأوروبي.

انفرجت اساريرها:

- ما عدا انابيب المياه. فهي تكاد تكون اميركية في جودتها وادائها!

- هل تعتبرين انابيب المياه جزءاً هاماً من الحياة؟

- الا تعتبرها انت كذلك؟

- انها هامة ولكنها ليست عنصراً جوهرياً. قضيت وقتاً طويلاً في قرى هندية صغيرة حيث لا وجود لأنابيب المياه، فأعرف ان الحياة تستمر بدونها.

قالت موافقة:

- اعرف اننا نستطيع العيش بدونها، ولكن المسألة تتعلق بنوعية الحياة. ثمة بعض وسائل الراحة والرفاهية التي اعتبرها جوهرية.

قال بمرارة:

- لا شك في ذلك. انت لا تختلفين عن اية امرأة اخرى.

وأدركت لتوها انه يفكر في فيكي. لم ترغب في البوح امامه بسرها الذي خالت انه يجهله، فتظاهرت بالبراءة:

- انا لا اقصد اني عاجزة عن تحمل حياة الخشونة في ظل ظروف معينة.

سألها:

- وما هي هذه الظروف؟

هل تقول له حقيقة مشاعرها وانها مستعدة لتحمل الحياة الصعبة مع شخص تحبه؟ لا، فكرت ابيا، لأن ذلك يعني اطلاعها على ماضيه. والأسوأ من ذلك، سيبدو قول كهذا وكأنها تحاول التقرب منه. ولذلك قررت الاعتصام بالصمت. اخترقت كلماته حاجز صمتها وهو يعلن:

- ما اسهل قراءة افكارك آنسة وست. تصور لك عاطفتك انك قادرة على اقتسام كل مشاق الحياة مع الشخص الذي وقع عليه اختيارك. ولكن عندما يصدمك الواقع كما هو، ستجدين ان للمدنية سحراً جذاباً لا نستطيع مقاومته.

- انا لا انوي التخلي عن المدنية الى الأبد بكل تأكيد. وهذا ينطبق عليك ايضاً. اعني انك تعيش حياة مرفهة الآن، ولماذا تلوم الآخرين اذا طلبوا حياة مماثلة؟

- لأنني اعرف الأولويات في الحياة. ثمة اشياء اخرى كثيرة اعمق معنى من انابيب المياه.

- وآخرون يدركون ذلك ايضاً سيد فارو. الم تسمع بأولئك الذين ذهبوا الى اقاصي الغابات لينقلوا الى ذوي الحظ العاثر معاني الحياة، وفوائد العلم والتكنولوجيا؟ ليس ما تقوم به امراً خارقاً.

لم يكن في نيتها الاسترسال في الحديث، ولكن كعادتها عندما يستثير احد مشاعرها اطلقت العنان للسانها. ولا شك ان هذا ما كان يجول في بال جيلز فارو، اذ نظر اليها تلك النظرة المليئة بالتوتر والتبرم. قال:

- امقت الناس الذين يستغلون كل فرصة لالقاء مواعظهم والحث على مكارم الأخلاق.

- تعني انك تمقت كل شخص يؤمن بقضية ما، ويملك الشجاعة الكافية للدفاع عنها؟

- لا بأس اذا كنت تريدين التعبير عن آرائي على هذا النحو.

- الا تدافع انت عن رأي تؤمن به؟

هز برأسه:

- غير اني لا ادين الآخرين اذا رفضوا اقتفائي. وانا عملياً لا يهمني مطلقاً ماذا يفعل الآخرون.

- اذن لا يدهشني ان تكون عمتك الشخص الوحيد الذي يهمه امرك.

اتقدت عيناه غيظاً فتوهجتا كعيني نمر يهم بالانقضاض على فريسته في كبد الظلام. ووقفت ابيا تنتظر تفجر غضبه في وجهها، لكنها كانت مخطئة، وأساءت تقدير سيطرته على نفسه. قال:

- لا احتاج الى آراء الناس الكريمة بي يا آنسة وست. طالما ان نخبة الناس التي اعرفها تحترمني، فهذا يكفيني. اما رأيك انت فلا يهمني.

لسعت مقلتيها عبرات حادة، فحاولت اخفاءها متوجهة الى طرف المصطبة. حدقت في مياه المحيط مدلهمة الوجه، كئيبة.

اقترب منها جيلز فارو، وعندما جربت الابتعاد عنه سد طريقها. قال:

- المعذرة آنسة وست. لا يحق لي التحدث اليك هكذا. انا آسف.

قالت بصوت مضطرب:

- كنت فظ الطباع معي منذ اول لحظة رأيتك فيها.

قال متحسراً:

- ولكنني الآن كنت اشد فظاظة من السابق. وعذري الوحيد ان ثمة مشكلات كبيرة ترهقني وتشغل بالي. ارجوك ان تقبلي اعتذاري.

- حسناً.

وعندئذ فقط نظرت اليه، واضطرت لرفع رأسها كثيراً امام تلك القامة الفارهة. كان شاحب اللون قليلاً، وكأن رؤية فيكي لا تزال

تؤرقه. بدا لها اصغر عمراً وأقل طغياناً. اضافت:

- يؤسفني اضطراري للبقاء في منزلك. سأحاول ابعاد ظلي عنك قدر الامكان.

- لا ضرورة لذلك.

- لكن هذه هي رغبتي.

فتح فاه ليتابع كلامه ثم اطبقه، وتمتم مبتعداً عنها:

- كما تودين.

بقيت حيث هي، متمنية لو ان جيلز فارو لا يتمتع بتلك القدرة العجيبة التي تجعلها تكرهه وتشفق عليه في آن معاً. انفجر الشجار بينهما مثل عاصفة صيفية بدون اي انذار، واضمحل بالسرعة ذاتها. مع ذلك خلف وراءه ترسباً من الألم الذي ارعبها كثيراً، لأنها رفضت الاقرار بقدرة رجل مثل جيلز فارو على جرح مشاعرها وكبريائها.

ماذا يعنيها رأيه في الآخرين وكيفية تدبيره لحياته؟ وهي لا تبالي سواء اكان يكن لها الاحترام أو الاحتقار! وهي لن ترى وجهه ثانية بعد ان تغادر بومباي. وعندما يعود الى انكلترا ويزور عمته، فستحتجب عن انظاره. واذا تكررت زياراته ستقدم استقالتها.

استدارت لترى جيلز فارو منتصباً بجانب نافذة المصطبة، يغمر جسمه النور المنبعث من ورائه. كان يفوق طولاً اي رجل هندي موجود في الحفلة، ويكفي لهذا السبب تمييزه عن الآخرين. مع ذلك ليست قامته هي العلامة المميزة بل تلك الهيبة القيادية، وشكل الرجل المسيطر على نفسه وعلى الآخرين، الرجل الذي لا يدع قلبه ابداً يتحكم بعقله.

رفضت الاستمرار في هذا الوضع الذي يجعل جيلز فارو محور تفكيرها، فقررت الانضمام الى الآنسة بيتمان. قالت العجوز عندما رأتها:

- هل تنزعجين اذا غادرنا الحفلة الآن؟

- لا ابداً. انا على اهبة الاستعداد.

- اذن اهبطي بالمصعد واطلبي من البواب حجز سيارة اجرة.

- الن يقلق بال السيد فارو عليك؟

- سأبلغه خبر ذهابنا في الوقت الملائم.

ابتسمت ابيا:

- لقد خططت لكل شيء.

قالت العجوز وهي تدفعها بخفة نحو الباب:

- انا دائماً اخطط كل شيء.

وصمتت العجوز الى ان اصبحتا داخل سيارة الأجرة العتيقة المتوجهة الى تلة ماليبار. وكانت فيكي لوتن محور حديثها:

- لقد فطنت الى انها كانت خطيبة ابن اخي؟

- نعم. هل عرف انها ستكون هناك الليلة؟

- لا. لا اعتقد انه عرف عن وجودها في الهند. يا ليتك رأيت وجهه عندما دخلت.

اقرت ابيا:

- شاهدت وجهه بوضوح. بدا انه فوجيء بقدومها.

- اكثر من ذلك بدا محطم الأعصاب. كان وجودها درساً مفيداً له. قلت له امس ان عليه مواجهة الماضي كما هو، والاقرار بارتكابه خطأ فادحاً عندما سمح لنفسه الوقوع في غرام فيكي.

قالت ابيا بحذر:

- ربما كان لرؤيتها مفعول معاكس اذ يدرك انه لا يزال يحبها.

- اذا كان لا يزال يحبها فالمجال مفتوح امامه. فيكي ليست سعيدة مع زوجها وهي على استعداد للتخلي عنه.

سألتها ابيا متعجبة من دقة اطلاعها على خفايا الأمور:

- هل قالت ذلك بنفسها؟

- لا، طبعاً، استطيع قراءة افكارها بدقة حتى ولو لم تنبس ببنت شفة. اؤكد لك يا ابيا انها اتت الى الهند لتبرهن لجيلز انها على استعداد لاستئناف علاقتها به.

اشارت ابيا:

- ومن المحتمل ان يقبل عرضها؟

- انه الجنون بعينه. لم تكن تلائمه ابداً، لكن حبه لها اعماه عن حقيقتها. اتمنى ان يرى الآن الأمور بوضوح اكثر بعد ابتعاده عنها كل هذه السنوات.

ظلت ابيا صامتة. قالت العجوز الآنسة بيتمان:

- انت تعتقدين انه لا يحق لي التدخل في حياته، اليس كذلك؟

اجابت ابيا بصراحة:

- ان حبك لشخص ما لا يمنحك حق اصدار الأوامر له.

- اذا ما فعلت اي شيء من هذا القبيل، اؤكد لك ان جيلز سيقوم بعكس ما اقوله له. كل ما استطيع فعله هو خلق الأجواء الملائمة لاجتماعه بفتاة اخرى.

حبست ابيا انفاسها، فتابعت الآنسة بيتمان:

- نعم يا عزيزتي. انت زوجة مثالية لرجل مثل جيلز.

- ولكن لا يمكنك... انها مسألة رهيبة... لما كنت وافقت على العمل لديك لو ادركت ان افكاراً كهذه تراود ذهنك.

- انها افكار لم تخطر في بال ابن اخي للأسف الشديد.

- لست متأكدة. اعتقد انه فطن الى الأمر، وربما يكرهني لهذا السبب. هل قمت بعمل كهذا من قبل؟

- مرات عديدة. لكن باءت مساعي بالفشل.

قالت ابيا محتدة:

- وستفشل مساعيك ثانية. اعتقد ان عملي لديك الآن صار مستحيلاً.

شدت العجوز قبضة يدها:

- لا يوجد شيء مستحيل. اعذري تطفلي غير اللائق، غير اني احب جيلز، وأكن لك وداً خاصاً. ليتني لم افصح لك عن افكاري، لكن لقائي بفيكي الليلة اطار صوابي. ارجوك ان تتغاضي عما قلته.

لا تتخذي اي قرار مستعجل بسبب احلام امرأة عجوز طائشة.

- كيف يمكنني الاستمرار في العمل لديك؟ سأشعر بالحرج كلما التقيت بالسيد فارو.

- هذا هراء. تقولين انك امرأة شابة عصرية، اليس كذلك؟ اذا كنت غير مولعة به، فلا لزوم لأي حرج.

كادت ابيا تبتلع كلماتها:

- هذا صحيح. اجد ابن اخيك رجلاً لا يطاق. واؤكد لك انه يبادلني الشعور نفسه.

قالت الآنسة بيتمان:

- اذن لا يوجد لديكما اي سبب يقلقكما حول مشاريعي.

ضحكت ابيا ضحكة خافتة وهي تلاحظ مهارة العجوز في كسب الجولة ضدها. قالت بصوت مرتفع:

- لا فائدة منك. سأبقى معك اذا تعهدت بالامتناع عن احراجي. عامليني كموظفة عادية وليس مثل فتاة تريدين منها ان تصبح احد افراد العائلة.

ردت العجوز على الفور:

- اذا كان هذا ما تريدينه، فليكن.

عندما استلقت ابيا في فراشها بعد ساعة من الزمن، ظلت محادثتها مع العجوز تشغل بالها. فقد اعتبرتها زوجة محتملة لابن اخيها، فلم تجد صعوبة في لعب هذا الدور، وأقلقها مدى تقبلها لهذه الفكرة. ليت شخصية جيلز فارو تتوافق مع منظره الجميل! ربما ان فيكي لوتن مسخت شخصيته؟ ولكن كيف يمكنها معرفة حقيقة امره وهي لم تلمس سوى الجانب السلبي فيه؟

هدر محرك سيارة تحت نافذتها، واضاءت انوارها الأمامية الحائط المقابل لسريرها لحظة خاطفة. انه جيلز. سمعته يوصد باب السيارة. ثم خيم الصمت اذ ان الجدران سميكة جداً. لكنها شعرت بالاحراج وهي تدرك وجوده على مقربة منها. هل تستطيع البقاء في

منزله بعد الآن؟ هل يمكنها الاجتماع به بدون ان تتذكر اتهامه لها حول مخططها لاستغلال عمته؟ وهل يخشى ان يجد نفسه مدار اهتمامها ايضاً؟ راحت تقهقه بدون ارادة منها.

اذا كان هذا ما يدور في باله، يسعدها جداً اثبات مدى ضلاله. ان رجلاً سمح لنفسه بالغرق في لجة المرارة الدائمة بسبب امرأة اخرى لا يستحق ان يكون شريك حياتها.

وغرقت في نوم عميق.

٩ - وضعها محفوف بالأخطار. رغم ان العداء المستحكم بينهما يكاد يزول، فهي لم ترغب في احلال الصداقة المتينة مكانه. فصداقته قد تكون اكثر تدميراً من عدائه السابق...

مر اسبوعان وأبيا تحاول تفادي جيلز فارو قدر الامكان. وعندما يتناول غداءه من وقت لآخر في المنزل، كانت تجلس الى الطاولة صماء بكماء، ثم تغادر فور انتهاء الوجبة. نشأت لديها حاسة سادسة تنبئها متى يكون موجوداً في البيت او يهم بالعودة اليه. وقبل ان يوقف سيارته في الخارج تهرع الى غرفتها الى ان تطلب رؤيتها الآنسة بيتمان او يدعوها جرس الخدم لتناول طعامها.

اما جيلز فارو فجرب اكثر من مرة التحدث اليها، كما لو كان يكفر عن فظاظته اثناء تلك الحفلة. وما لبث ان لمس موقفها الجاف ازاءه فقرر تجاهلها. ولم تشعر بالحرية التامة الا عندما يكون خارج المنزل، فتجوب غرف الطابق الأرضي لتمتع انظارها بالرسوم

www.elromancia.com

واللوحات الجميلة، والتحف وقطع الاثاث النادرة، وتعود مرة تلو الاخرى للتمعن في المنمنمات التي تزين جدار غرفة الجلوس الخاصة.

كانت هذه الغرفة شبه مقفلة هذه الأيام، اذ ان الآنسة بيتمان اعتادت الجلوس تحت ظلال اشجار الحديقة اثناء النهار، وفي غرفة الاستقبال اثناء الليل. لكن ابيا هامت عشقاً بغرفة الجلوس الصغيرة، وبوساداتها المنتفخة، وسجادها الوثير وجدرانها المزخرفة، والتي تغطي المنمنمات احدها. قررت ان تنسخ احدى المنمنمات ومضت الى الشارع الرئيسي بحثاً عن الألوان المائية وادوات الرسم.

وكان جيلز فارو تلك الليلة يتعشى في الخارج، وبعد ان انهت تناول طعامها مع الآنسة بيتمان توجهت الى غرفة الجلوس الصغيرة، وغطت احدى الطاولات الفخمة بقطعة قماش، ووضعت ادوات الرسم عليها.

اختارت الرسم المنمنم الذي تريد رسمه، وانزلته بعناية ووضعته على طاولة اخرى بجانبها. انها تملك القدرة على النسخ المتقن منذ فترة طويلة، وتساءلت لو تحول هذه الموهبة الى مهنة دائمة لها، وخاصة في ترميم الصور القديمة.

احنت رأسها وبدأت بالرسم تعض على لسانها الوردي باسنانها الدقيقة البيضاء، منكبة الوجه والجسم على اداء مهمتها المحببة. بدأت ملامح الصورة تظهر بسرعة. وانتهت من التصميم في اقل من ساعة. تناولت فرشاة وغمستها في الطلاء الخاص. وما ان وضعت مسحة من اللون على صفحة الورقة الملساء، حتى اطلقت تنهيدة فرح عارم، ثم جمدت الفرشاة في يدها لتذوق نكهة هذه اللحظة المنعشة. وعندئذ فقط، عندما رفعت رأسها عن الطاولة، رأت جيلز فارو.

اخذ قلبها يخفق باضطراب وكأنها سارق ضبط يرتكب جريمته، ألقت بفرشاتها فوق صندوق الطلاء، وهمت بالنهوض. قال بهدوء:

ـ لا لزوم للخروج بسبب وجودي هنا.

ـ كنت انوي التوقف في اية حال.

ـ هل استطيع ان ارى ما الذي ترسمينه؟

لم تجد سبيلاً الى رفض طلبه. قالت:

ـ لا تزال الورقة مبتلة، افضل ان اتركها حيث هي.

هز برأسه واتجه نحو الطاولة. تأمل في الرسم المنمنم ثم نظر الى نسختها. علق:

ـ لم ادرك انك فنانة.

ـ لست فنانة بل مجرد ناسخة.

انحنى قليلاً:

ـ وناسخة ممتازة. رسمت كل التفاصيل الدقيقة. هل صرفت وقتاً طويلاً عليها؟

ـ باشرت الرسم بعد العشاء.

ـ انها تضارع الصورة الشمسية دقة.

لم يحركها اطراؤه، فاعتدل في وقفته ومشى صوب النافذة المطلة على طرف الحديقة المنعزل. سألها:

ـ هل بعت احدى النسخ؟

ـ اتبرع بها عادة بدون مقابل.

استدار ليحملق في وجهها بعينين متوهجتين:

ـ هل ترسمين هذه كهدية لعمتي؟

ـ كلا. لا اظن ان الآنسة بيتمان تهوى هذه الأشياء، خاصة اذا كانت تستطيع شراء الرسوم الاصلية.

وتابعت حديثها غاضبة، مدركة انها ستندم على كل كلمة ستقولها:

ـ آخر نسخة رسمتها كانت لوحة الفنان غينزبرو «الولد الازرق». كانت اللوحة المفضلة لامرأة عجوز اساعدها في التبضع. رسمت لها لوحة زيتية كاملة، وتعمدت ذلك لمعرفتي انها ستورثني كل ثروتها عندما يتوفاها الله. لم اخبرها بعد انه لا يمكنها ان تورثني معاش تقاعدها لانها ستستاء كثيراً، اذ انها لا تملك اي شيء آخر.

ارتجف صوتها، ثم غرقت في الصمت، تتحسر ندماً على ما قالته. لماذا حاولت تبرير ما تقوم به لجيلز فارو؟ ولماذا تهتم برأيه السلبي فيها؟

ردد جيلز صدى سؤالها:

ـ لماذا قلت لي كل هذا آنسة وست؟ لا اظن انك تبالين بموقفي منك.

ـ هذا صحيح، طالما انك تزدري وجودي ولا تثق بي اردت ان اصفعك بالحقيقة المرة.

ـ استطيع دائماً ان اشك في كل ما تقولينه. مع ذلك، لا حاجة للقلق آنسة وست. انا اصدق ما تقولينه. لا يمكن لأحد اختراع قصة عاطفية كهذه.

استشاطت غيظاً، فدنت منه، وصاحت:

ـ هل ترى ان من واجبك تشويه سمعة كل انسان؟ انت فظ الفؤاد كأنك قطعة من الجماد.

ـ نعم. ولهذا السبب يصعب عليك اصلاح وضعي.

ـ لا انوي تبديد وقتي عليك. انت اكره رجل عرفته!

واستدارت لتبتعد عنه، لكن يده امسكت كتفها وجذبتها نحوه:

ـ احذرك من التطاول علي. ما زلت ضيفة في بيتي.

ـ لا تذكرني. لو لم اكن احب عمتك كل هذا الحب لغادرت هذا المكان هذه الليلة.

ـ تقصدين انك يئست من كسب ودي؟

توردت وجنتاها حياء، وادركت انه يستمتع باحراجها على هذا النحو بعد ان اخترق سرها الدفين. قال:

ـ اذن كنت على علم بمطامح عمتي عندما وظفتك! لم اكن متأكداً، اما الآن فحصلت على الجواب منك.

بلعت ابيا ريقها بأسى:

ـ لم اعرف ما الذي تبيته عمتك الا بعد انتهاء الحفلة. لو فطنت

منذ البداية لما قبلت العمل لديها بأي ثمن. لا اريد ان اضحي بنفسي على مذبح الأنانية والقساوة مهما كنت طيبة القلب.

جذبها نحوه غاضباً:

ـ انت لا تعرفين شيئاً عني البتة!

ـ اعرف انك تكتوي لوعة لأن فتاة حمقاء تصرفت معك باسلوب احمق، تعتقد ان كل امرأة ستتصرف بالاسلوب نفسه.

قال باصرار:

ـ هذا ما يفعله معظمهن. لا هم لديهن سوى الحصول على اغنى رجل.

ـ ليس هذا صحيحاً.

ـ حقاً! لماذا انت هنا اذن؟ ام تتوقعين مني ان اصدق مدى استمتاعك بالعيش في الريف تسعة اشهر في السنة والعمل لدى امرأة تناهز الثمانين من عمرها!

صاحت:

ـ هذا ما يداعب خيالي. ان العيش في دير للراهبات افضل بكثير من العيش معك!

ـ حقاً!

وبسرعة جنونية جذبها اليه وعانقها. قاومته محاولة التملص منه، لكنها كانت كعصفور صغير يعارك نسراً كاسراً. استمر يشدها بقوة الى ان استكانت قليلاً.

لم يسبق لرجل ان عانقها على هذا النحو من قبل، واشتعلت شرايينها بأحاسيس غريبة. هالها ان يكتشف حقيقة مشاعرها فراحت ترفسه، فطوقها اكثر. ظلت تعاركه الى ان ارخى يديه قليلاً، ثم رفع رأسه. ظل يحدق في عينيها. بدت مقلتاه في تلك اللحظة كالبحر الهائج تتلاطم امواجه ثم ترتطم بصخور الشاطىء ورماله الذهبية. ولمست لمس اليد عاطفة جياشة تضج في جوارحه خالته لا يفهم معناها العميق حتى هذه اللحظة.

كانت عيناه ترويان الف قصة وقصة، وتراءى في ذهنها منظر الشمس الغاربة وهي تلف الهضاب بذلك النور الارجواني الساحر. ثم استعادت بعض وعيها. وكان رأسها يؤلمها، وجسمها يرتعش كورقة خريف ذابلة. مع ذلك، احست انها لم تعد تخشاه بعد ان هدأ روعه، وسيطر على اعصابه مرة اخرى. قال اخيراً:

- انا آسف يا ابيا. لا مبرر لما فعلته اطلاقاً.

اجابت بصوت ابح:

- انا اتحمل المسؤولية ايضاً نتيجة استفزازي لك.

- لنقل اننا اخطأنا نحن الاثنين!

ابتعدت عنه قليلاً، فأمسك بها لتوه. سألها بقلق:

- هل سببت لك الأذى؟ انك صغيرة...

قاطعته:

- انا بخير. كل ما في الأمر ان احداً لم يعانقني هكذا من قبل.

فهقه على نحو لا اثر للسخرية فيه:

- انت بريئة جداً يا ابيا. اصفعي وجهي اذا كنت مستاءة.

- ما الفائدة؟ ستعود الأمور الى سابق عهدها. وهذا وضع مخز لا معنى له.

استدارت وتوجهت الى الطاولة حيث التقطت نسخة الرسم المنمنم. طلب منها قائلاً:

- اتركيها مكانها. لن ادع احداً يمسها. وهكذا تعودين غداً لاستئناف العمل عليها.

- شكراً.

- لكن اقترح عليك العمل اثناء النهار لئلا ترهقي عينيك كثيراً.

اشارت قائلة:

- انا اعمل مع عمتك اثناء النهار.

سألها:

- هل تحبين العمل معها؟

- بالكاد تنجز اي عمل الآن. ما زلت اقوم بدور المرافقة اكثر من اي شيء آخر.

- انتظري حتى عودتك الى انكلترا. لن تجدي دقيقة من الراحة (وتجهم وجهه) ابيا، اريد الاعتذار ثانية...

قاطعته:

- لا ضرورة لذلك. او انك تخشى ان اطلع عمتك على حقيقة ما جرى الليلة؟

- ربما شعرت بالغبطة الفائقة لو عرفت حقيقة ما جرى.

قالت ابيا تشتعل غيظاً:

- اذن لن ابوح بحرف واحد.

وهمت بفتح الباب، عندما تكلم ثانية:

- انت تتحملين جزءاً من المسؤولية يا ابيا. بذلت جهدك خلال الأسابيع الفائتة لاثارة مشاعري.

احتجت:

- قمت بعكس ذلك تماماً. حاولت تفاديك بكل وسيلة ممكنة.

- تعمدت اثارتي عبر غيابك الواضح.

- لم يكن هذا مقصدي.

- ربما ولكن هذا ما جرى.

قالت بجرأة:

- اذن وجه اللوم الى ضميرك الذي يؤنبك. هذا ما جعلك تلمس اجتنابي لك. لو لم تدرك سوء تصرفك لما لاحظت سلوكي تجاهك.

افتر ثغره عن ابتسامة باهتة:

- ارجوك كفي عن هذا الاسلوب في المستقبل. انه ليس ضرورياً.

قالت باستخفاف:

- حسناً. ليلة سعيدة سيد فارو.

راحت تطوف في غرفة نومها متوترة الاعصاب، يؤرقها ذلك

المشهد الذي دار بينها وبين جيلز وكأنه مجرد حلم مرهق. ظلت صورته مرتسمة في ذهنها، فازدادت هلعاً، متمنية لو تستطيع النظر اليه بموضوعية باردة كأي شخص آخر. لم تكن تنوي المضي في كرهه، مثلما ترفض ان تكن له مودة ما. ان وضعاً كهذا محفوف بالأخطار.

لم تقلب المسألة اكثر من ذلك، ومشت نحو النافذة لجذب الستائر. رأت في الحديقة شبحاً اسود يتراءى وراء الاشجار، وتبينت انه جيلز فارو يعبر الممر الضيق الذي يلتف حول بركة السباحة. اذن هو الآخر قلق البال لا يستطيع النوم. اشعل سيكاراً فأضاء وجهه الشاحب. ثم غمرته الظلمة ثانية. تنهدت وصعدت الى سريرها.

استيقظت مع انوار فجر هندي ندي منعش. وما ان حدقت في الفضاء الرمادي شبه الوردي حتى قفزت صورة جيلز فارو الى ذهنها. وجدت صعوبة في تعليل عناقه لها. دفعه غيظه الى ذلك في البداية بدون شك، ولكن عندما هدأ غضبه لم يحاول الهزء منها كعادته، بل تحدث معها وكأنه يراها للمرة الأولى، واعجبته رؤيتها.

استحمت، ارتدت ملابسها وهبطت الى الحديقة. كان النسيم العليل يهب بخفة منعشة تزيل غشاوة الليل وهمومه. قفزت فوق الاعشاب بمرح فتاة تزهو بنعومة التراب وزرقة السماء.

كانت تجلس على المصطبة في الساعة الثامنة لتناول طعام الفطور عندما انضم اليها جيلز فارو. لم يسبق له ان اهتم بالفطور فتساءلت ابيا ما اذا كان بدل عادته ام انه في اجازة. علق قائلاً:

ـ نهضت باكراً هذا الصباح.

ـ ان هذا الطقس الجميل يجري من سريري جراً.

ـ هل ترقصين حول الحديقة لاستقبال نهار جديد؟

اجابت بهدوء:

ـ ارقص عندما اشعر بالسعادة، وأغني ايضاً.

تمعج فمه:

ـ وهل هناك سبب معين لسعادتك هذا الصباح؟

قالت بلهجة جادة:

ـ ربما لأننا اصدقاء الآن. ليس اصدقاء فعليين، ولكننا على الأقل لم نعد اعداء.

ـ وهذا اسعدك الى حد الرقص؟

اطلقت زفرة عميقة:

ـ نعم. لا يسهل على المرء البقاء في بيت يشعر انه غير مرغوب فيه.

صمت متجهم الوجه، مقطب الحاجبين، ثم قال اخيراً:

ـ لم ادرك ان مسلكي ازعجك الى هذا الحد. كان انطباعي عنك انك لا تبالين برأيي فيك. اهنئك على نجاحك في اخفاء مشاعرك.

ـ انه ليس تعليقاً منطقياً، خاصة عندما يصدر عنك سيد فارو.

ذكرها:

ـ اسمي جيلز.

توردت وجنتاها ثم هزت رأسها:

ـ اظن ان عليك اعادة النظر في تقويمك لي.

توهج وجهه وكأنه يستمتع بكل كلمة تفولها. ورأت نفسها تنظر الى عينيه البراقتين، وتتمعن في قسمات وجهه الصارمة. تنبهت الى تحديقها المتواصل فدفعت كرسيها الى الوراء. قال بلهفة:

ـ ارجوك لا تغادري. لم نعقد عهداً بيننا ليلة امس.

استرخت ابيا في كرسيها ثانية، وراحتاها ترشحان عرقاً. ان عقد اواصر الصداقة مع جيلز فارو لا يقل خطورة عن استعدائه. فكرت في اي شيء تقوله، ففشلت فشلاً ذريعاً. بدا انه لا يعبأ بصمتها اذ شرع بالتهام تفاحة. سألته بعد تفكير طويل:

ـ هل كانت امنيتك ان تصبح مهندساً نووياً؟

هل فاجأه السؤال؟ خالته يتلقاه بكل برودة وهو يقول:

ـ كنت اطمح ان اكون سائق قطار في البداية.

- ولكن ماذا بعد ان تجاوزت هذا الطموح بالذات؟

- قررت بعدئذ اقتفاء خطى والدي. كان يزاول المهنة نفسها. وهكذا تطور اهتمامي بالفيزياء النووية.

- وانت الآن في مقدمة زملائك في هذا الحقل. لا بد انك فخور بنفسك.

قال بعد لحظة تأمل:

- اظن انني اشعر بالفخر. ولكنه وضع يفسد الانسان حيث كل الناس يبجلونه في عمله ويتوقع نشوء الحالة نفسها في حياته الخاصة.

هل كان يشير الى خطوبته الفاشلة ويبدي اسفه لتشبثه برأيه؟ تكلم طارقاً موضوعاً جديداً:

- حدثيني عن نشأتك وخلفيتك انت يا ابيا؟

- ان خلفيتي عادية جداً. مات والدي وانا طفلة صغيرة، فكدحت امي الليل والنهار لاعالتنا. تركت المدرسة مبكراً ووجدت وظيفة. مع ذلك لم تتحسن اوضاعنا كثيراً. ثم فازت اختاي في مباراة للجمال فابتسم الحظ لنا بعد ذلك.

تنهدت منهية قصتها لتسمع وقع خطى العجوز تقترب منهما. اعلنت:

- هيا بنا يا ابيا. اريد الذهاب الى السوق. تعبت من الشغل.

توسلت اليها ابيا:

- اذن دعيني اشتغل على الآلة الكاتبة قليلاً. طال امد عطلتي كثيراً.

حدجت الآنسة بيتمان ابن اخيها:

- هل سمعت في حياتك تضرعاً كهذا؟ لا يا عزيزتي عزمت على التوجه الى السوق وارفض ان اذهب وحيدة.

- سأجلب جزداني وانضم اليك في السيارة.

ألقت ابتسامة عابرة مودعة جيلز، وهرعت الى الداخل. سرها ان حديثها معه توقف عند ذلك الحد. رغم ان العداء المستحكم بينهما

شهد نهايته، فهي لم ترغب في احلال الصداقة المتينة مكانه. اذ ان صداقة جيلز قد تتطور الى مرحلة اشد خطورة، واكثر تدميراً لراحة بالها من عدائه السابق.

ابتاعت الآنسة بيتمان كل ما تحتاجه بحماستها المعهودة. وما لبثت السيارة ان امتلأت بآنية النحاس، وحقائب الجلد، واقمشة الحرير الزاهية.

وما ان بلغت الساعة الثانية عشرة حتى هد التعب ابيا فتمنت لو تعود الى المنزل. غير ان ربة عملها كانت لا تزال في بداية التسوق، مصرة على شراء هدية لكل واحد من اصدقائها العديدين. واقترحت ان تشتري لابيا شيئاً ما، فرفضت هذه الاخيرة مدركة مدى سخائها وتبذيرها.

كانت الساعة الواحدة والنصف عندما وصلتا الى فندق تاج محل حيث قررت الآنسة بيتمان تناول الغداء هناك. اوضحت لها وهي تقودها الى القاعة الرخامية:

- لم تشاهدي في بومباي سوى عدد ضئيل من المعالم، ويؤنبني ضميري نتيجة ذلك.

اتيحت الفرصة لابيا عندما كانت في لندن لزيارة فنادق العاصمة الفخمة، وذلك عند تسليمها بعض الكتب الثمينة الى زبائن معينين. لكنها لا تذكر انها رأت قاعة تغص بالناس مثل هذه القاعة، وبجنسيات متعددة من العرب والصينيين والانكليز والاستراليين والاميركيين.

سارت الآنسة بيتمان عبر الردهة، واستدارت شمالاً نحو رواق من القناطر حيث امتدت شتى انواع الحوانيت. وها هي امرأة طويلة هيفاء القوام تبرز من احد الحوانيت، وكادت ان ترتطم بهما.

هتفت العجوز بفتور ظاهر:

- مرحباً فيكي. ما توقعت ان اراك هنا. ذكر جيلز انك تريدين الذهاب الى منطقة الطيور لقضاء بضعة ايام.

ـ ذهب زوجي بمفرده. ما اعجبتني فكرة الجلوس بصمت لمدة ساعات من اجل مراقبة ريش الطيور واذنابها.

نظرت فيكي الى ساعة معصمها الماسية وكأنها توحي بموعد عاجل لديها، واحنت العجوز رأسها ومضت في سبيلها. لحقت بها ابيا، وقد انطبعت صورة فيكي في ذهنها. كانت فيكي رائعة الجمال في ذلك الفستان الزهري، مما ابرز بشرتها السمراء الداكنة. وخيل لها انها زرية الملابس مقارنة بها، وتمنت لو تستطيع هي الاخرى لفت الانظار اليها. وخاصة انظار جيلز!

هتفت العجوز:

ـ ها قد وصلنا.

وتوقفت امام باب خشبي ضخم حفر عليه اسم: حجرة التنين. كان المكان مطعماً صينياً، كما توقعت ابيا، ويغص بالناس الى درجة الازدحام. تعجبت من ذوق العجوز في تناولها الطعام الصيني في الهند. وسرعان ما غيرت رأيها عندما طلبت ربة عملها الخبيرة وجبة متنوعة شهية، لم تذق مثلها في اي مطعم صيني ارتادته في لندن.

كانت الآنسة بيتمان تحتسي الشاي عندما اخذت تستفيض في الحديث عن ثروتها الطائلة، وآمالها في انفاقها على اولاد جيلز. قالت:

ـ لكنه رجل عنيد. انا احب الاطفال كثيراً. وهو لا يزال غارقاً في آلام الماضي وتجربته المريرة مع فيكي. ليته يصغي الي ويتزوج ثانية.

قفزت الى مخيلة ابيا صورة اطفال صغار يشبهون والدهم جيلز تماماً، ويقفزون ويمرحون في غرفة الجلوس. كانت ابيا شاردة الذهن عندما ابدت العجوز رغبتها في صرف بعض الوقت وسط حديقة الرواق، واشارت على ابيا بالتجول حول الفندق واكتشاف معالمه.

بدا الفندق عالماً قائماً بذاته يضم اكثر من ستة مطاعم، وتمتد تحت قناطره الحوانيت والأحواض الصغيرة التي تسبح فيها الاسماك. ولفت انتباهها مقهى ذو طراز اميركي يتنافر منظره مع بقية الهندسة

المعمارية. فضلت مطعم التندوري حيث تضيئه انوار خافتة. توقفت امامه قليلاً، فأشار عليها احد الموظفين بالدخول والتجول في المطعم. قال:

ـ نرحب بك لتناول الغداء او العشاء ذات يوم هنا. نقدم الى الزبائن طبقاً خاصاً من دجاج التندوري.

اجابت ابيا:

ـ تذوقته ذات مرة في لندن.

ـ ولكن لا يستطيع احد طهيه بطريقتنا الخاصة حيث نضعه في فرن قرميدي. ارجوك ان تأتي معي لأريك ما اقصده.

مضى بها عبر المطعم، والمطبخ النظيف والحديث حيث احست بحر شديد. كم تكون درجة الحرارة في الصيف هنا، فكرت ابيا وهي تتبعه. وفتح الموظف فرناً مبنياً من القرميد ففاحت رائحة الدجاج المحمر، ولسعت وجهها حرارة النار القوية. قالت ابيا وهي تتراجع الى الوراء:

ـ يا للرائحة الزكية. هذا ما سأطلبه عندما آتي الى هنا.

تهللت اسارير الموظف، وعاد بها الى المطعم. وكانت تهم بالخروج عندما رأت الرجل والمرأة يجلسان على بعد امتار منها. كانا غارقين في الحديث فلم يتنبها الى وجودها كما تصورت. بدا الفستان الزهري متألقاً بحريره الناعم، وفاتتها ملاحظة شعر جيلز ذا اللمعان الخاص. هذا هو اذن سبب بقاء فيكي في بومباي! ضج صدرها بالغضب والقرف معاً. كيف يسمح جيلز لنفسه التصرف بهذه الحماقة فيجري وراء امرأة خذلته منذ عدة سنوات، وتخدع زوجها للالتقاء به؟

هبطت ابيا السلم مسرعة الخطى، واقفلت عائدة الى مكان العجوز، التي هتفت عندما رأتها:

ـ ما توقعت عودتك بهذه السرعة. ارجو ان كل شيء على ما يرام.

اومأت ابيا برأسها.

- رأيت كل شيء.

وكم كانت عبارتها دقيقة المعنى! فكرت بأسى، متمنية لو تمحو صورة جيلز وتلك السيدة المقيتة من ذهنها. لماذا تريد فيكي لوتن رؤيته ثانية؟ هل تريد اثبات مدى سيطرتها على مشاعرها، ام ان اجتماعهما مجرد لقاء عابر لعاشقين سابقين تربطهما صداقة عادية؟ علقت الأنسة بيتمان:

- ما هذا الصمت المفاجيء؟ هل ثمة ما يشغل بالك؟

اخفت ابيا حقيقة مشاعرها وهي تتبع ربة عملها الى السيارة:

- اعاني من صداع بسيط!

بدت شاردة الذهن وهي تحدق في الشارع المزدحم بسيارات الاجرة والدراجات وطوابير الشحاذين المتدافعين حول النوافذ. سألت نفسها:

- ماذا يهمني منظر جيلز فارو وفيكي لوتن يجلسان في مطعم معاً؟ انها حياته الخاصة، ويستطيع ان يفعل ما يحلو له بها. هذه مسألة لا تهمني اطلاقاً!

لكنها كانت تكذب على نفسها، رن صوت في قرارة ذاتها. ان المسألة تهمها وتعنيها. كانت تتوق شوقاً للجلوس مكان فيكي. تمنت لو ان جيلز فارو ينظر اليها تلك النظرة الحنونة الملهمة. اطلقت زفرة عفوية، فوضعت العجوز يدها على ذراعها قلقة البال:

- هل انت بخير يا عزيزتي؟ هل اجبرتك على التهام كميات كبيرة من الطعام؟

تلقفت قول العجوز قائلة:

- انه مجرد سوء هضم ليس اكثر.

- ساطلب لك بعض عصير الليمون وقليلاً من السكر فور وصولنا الى البيت.

ضاعفت السيارة سرعتها متسلقة تلة ماليبار التي تنتشر فيها المنازل

الكبيرة والبنايات المرتفعة تحيط بها حدائق غناء والاشجار الباسقة. واخيراً بلغتا نهاية الطريق. قالت ابيا بعجل:

- اذا كنت لا تريدين شيئاً خاصاً مني، فأفضل الاستلقاء في غرفتي بعض الوقت.

اجابت الأنسة بيتمان:

- لا بأس. ابقي في غرفتك قدر ما تشائين. اريد ان اكتب بمفردي.

شكرتها ابيا ومضت الى غرفتها. كانت تحتاج الى الخلوة لاستيعاب حقيقة ما ادركته، ولتكتشف كيفية معالجتها. يا له من شعور كأنه القضاء والقدر. لا مفر لها من مواجهة الواقع. ان حب جيلز يتيمها. انها عاشقة.

كيف تم ذلك ومتى؟ كانت تكن له الكره منذ مدة قصيرة! لا شك ان عشقها مجرد نزوة عابرة، حدثت نفسها. ما الذي يجمع بينها وبين هذا الرجل؟ تمتمت وهي تستعيد صورة فيكي لوتن:

- كيف يسمح لنفسه التصرف بحماقة مرة تلو الأخرى، هل هو الحب؟ هل جيلز لا يختلف عن بقية الرجال؟

وعندما توجهت لتناول العشاء في ذلك المساء، هالها ان تجد جيلز ينتظر في غرفة الطعام بكامل اناقته. بدا لها في ريعان الشباب، يفيض حيوية وثقة بالنفس. خاطبها وهي تتقدم منه:

- ما هذه الرزانة؟

هزت بكتفيها ولم تجبه بشيء. تفرس في وجهها ثانية، واقترب منها حاملاً كوباً من العصير:

- ان عصير البرتقال مفيد ومنعش.

امسكت الكوب بمضض. تراءى لها انه يراقبها عن كثب. احست بالاحراج فاتجهت نحو الأنسة بيتمان لئلا يلاحظ اضطرابها اذا ما ظلت قربه. قالت العجوز:

- كنت اخبر جيلز عن رغبتي في السفر الى ارنجباد، وهي تبعد

ساعة بالطائرة من هنا.

علقت ابيا شاردة الذهن:

ـ انه مكان مشهور بكهوفه.

ـ لا يوجد سوى كهف واحد. وليست ارنجباد سوى قرية صغيرة تقوم فيها بعض الفنادق لاستقبال السياح الذين يزورونها لمشاهدة الكهف والهياكل الصخرية (واستطردت العجوز) اذا كنت لا تمانعين، اود التوجه الى هناك بعد غد. سيقوم جيلز بشراء التذاكر لنا.

اعترض:

ـ من الصعب الحصول على التذاكر هذه الأيام، اذ ان الفوضى تدب في خطوط السفر الداخلية.

اعلنت عمته بثقة:

ـ لن تعجز عن الحصول على اي شيء اذا اردت، فالحكومة لا ترفض لك طلباً.

ابتسم:

ـ انك تبالغين في تقديري.

اجابت:

ـ اعرف ما هي قيمتك بالضبط. وآن لك ادراك ذلك.

تبادلا نظرات خفية كأنهما في حلبة مبارزة ذهنية. وفهمت ابيا ان عمته تعرف تناوله الغداء مع خطيبته السابقة. اقترحت العجوز:

ـ لماذا لا تأتي معنا الى ارنجباد؟

ـ لدي اعمال كثيرة.

ـ اعرف. ولكن هل يوجد شيء عاجل؟

قال بفتور:

ـ سأحاول جهدي. ان قضاء بضعة ايام خارج بومباي فكرة مغرية.

استدارت ابيا لاخفاء وجهها، ووضعت كوبها فوق طاولة

جانبية. لكن جيلز لحق بها، وسد طريقها قائلاً:

ـ لماذا ما القيت علي التحية في المطعم بعد ظهر هذا اليوم؟

اصيبت بالدهشة، فانعقد لسانها. اضاف:

ـ الم يعجبك منظري؟

ـ لم ادرك انك رأيتني هناك.

تألقت عيناه:

ـ لست اعمى. هل اردت تجاهلي لاعتراضك على وجودي مع فيكي؟

ـ هذه مسألة لا تعنيني.

احنى راسه قليلاً:

ـ بدون مبالغة. ما هو السبب؟

ـ لا يوجد اي سبب. صدقني.

قطب حاجبيه وهو يدنو منها قليلاً، سألها:

ـ هل اخبرت عمتي؟

ـ كلا. لا اريدها ان تشعر بخيبة الأمل.

حبس انفاسه:

ـ تختارين كلماتك باتقان.

ـ اتمنى لو كنت تتقن اختيار صديقاتك من النساء.

ندمت على تفوهها بهذه العبارة وكأنها تبوح بما يخالج فؤادها. لكن جيلز كان في ثورة من الغضب فقاته معنى كلماتها. قال متمهلاً:

ـ لا يحق لك اصدار الاحكام على فيكي. ليس الحب كما تصوره الروايات العاطفية حيث يؤدي كل شخص دوره على اتم وجه، ويرفل العاشقان بالسعادة الأبدية. يرتكب الناس في الحياة العملية اخطاء كثيرة ويدفعون ثمنها غالياً.

سألته ابيا بفتور:

ـ هل تتحدث عن نفسك؟

- هل يهمك الجواب؟
- ليس الى حد كبير. ان مشاعرك مسألة تعنيك انت.
قال بهدوء:
- اعتقدت اننا اصبحنا اصدقاء. ولا يلقي الاصدقاء الكلام على عواهنه وقبل التأكد من حقيقة الوضع.
اشاحت ابيا بوجهها:
- انت لم تقتنع بصداقتنا. وأثق تماماً ان رأيي لا اهمية له بالنسبة اليك.
قال بجفاف:
- انك تقللين من قدر نفسك.
هتفت العجوز:
- ما هذا اللغط يا جيلز؟
قال لتوه:
- نناقش الوضع السياسي.
علقت عمته:
- لن تستطيع الوصول الى اي حل.
اجاب جيلز:
- يمكن حل كل المسائل عندما تتوفر الارادة.
لاح في عينيه بريق خبيث. وجدت ابيا ان الوضع لا يستحق الدعابة والاستخفاف. ابتعدت عنه واستلقت فوق مقعد طويل. ادهشتها رغبة جيلز في معرفة رأيها، وسبب اجتنابها له في المطعم. قررت انه يرمي الى اكتشاف ما اذا حدثت عمته حول الموضوع. سمرت نظرها على السجادة، محاولة تجاهل جيلز الذي اتى للجلوس بجانبها وهو يلوح برجله في الهواء. تمنت لو يرفض الذهاب معهما الى ارنجباد. ما استساغت فكرة قضاء عدة ايام في صحبته. اخذت تفكر في التخلف عن السفر اذا ما قرر الموافقة على اقتراح عمته. سألها بعذوبة:

- ماذا يجول في ذهنك؟
اجابته مباشرة:
- لماذا تريد الذهاب الى ارنجباد؟ يلوح لي انك زرتها مرات عديدة.
- هذا صحيح. لكن آثارها تجذبني اليها باستمرار. علاوة على ذلك، احتاج الى بعض الراحة، والابتعاد عن بومباي وضجيجها. ولا شك ان خيالك الخصب سيجد اسباباً اخرى.
ردت:
- لا يوجد سوى سبب واحد. تريد الهرب من مغبة اغواء المرأة.
قال كأنه يتعمد الاهانة:
- وماذا لو كنت اندفع نحوها اندفاعاً؟
توردت وجنتاها حياء، ورنت قهقهة في اذنيها فازدادت احراجاً.
تابع:
- اذا كنت تريدين مقاومتي يا ابيا فاستخدمي سلاحاً اقوى من الكلام الحاذق.
- وماذا تقترح؟
اخذ ينقل النظر بين شعرها الأملس، ووجهها الملائكي، وجسمها النحيل وقدميها. ثم قال:
- لديك اسلحة اشد فتكاً يا ابيا وست، وبراءتك تمنعك من استخدامها على نحو فعال.
ردت بحدة:
- انها براءة ارفض التخلي عنها.
- انه رأي يدعو للأسف. عندما تينع الثمار يحين قطافها. لا فائدة من ذبولها فوق الاغصان. هذه جريمة لا تغتفر.
غرقت في صمت عميق. لمست لمس اليد ان خوض المعارك الكلامية معه لن يؤدي الى نتيجة. انه رجل مثقف يتقن التلاعب بالالفاظ، وها هو يمارس مهارته امامها. هل يحاول ان يغازلها

بطريقته الخاصة، تساءلت ابيا. يا لها من طريقة معوجة! ايا كان السبب، فهو حتماً لا يبدو انه يهيم عشقاً بمظهرها الجذاب، وجمالها الخارق. انها تعرف حدودها. ربما كان يعبر عن شعور دفين، فيبدو مجرد رجل احمق.

دلف خادم ليعلن وقت العشاء؛ فقفزت على قدميها وتوجهت الى الطاولة قبل جيلز وعمته. قال ممازحاً:

- يبدو انك جائعة.
- سألتهم طعامي التهاماً.
- ارجو ان تكتفي بالتهام الطعام!

١٠ - ماذا تفعل؟ هل تقفل عائدة الى بلدها؟ انها مجرد فتاة عادية لا تتمتع الا بمسحة من الجمال وقليل من الجاذبية. كيف تنافس امرأة خبيثة، جميلة ومثيرة مثل فيكي؟

لم يذهب جيلز الى مكتبه في اليوم التالي، بل قضى معظم الصباح لانهاء اجراءات الرحلة الى ارنجباد، والبحث مع عمته حول بعض استثماراتها.

جلست ابيا على الجهة الاخرى من بركة السباحة لتفادي التدخل في مسائل عائلية لا تعنيها. لم تغامر في التمتع بالسباحة، اذ انها ترفض خلع ملابسها امام جيلز. وهكذا ظلت ملتفة بفستان خفيف. وعندما ارتفعت حرارة الشمس انتقلت لتنعم بغطاء مظلة كبيرة.

اخذت تقرأ بعض المسودات التي حبرتها ربة عملها. كانت منكبة على فك لغز احرف احدى الكلمات عندما اقترب منها جيلز. سألها:

www.elromancia.com

- لماذا لا تسبحين؟

ظلت تحدق في الصفحة، لكنها لمحت بطرف عينها رجلي جيلز الحافيتين.

تابع:

- هل تفضلين الذهاب الى الشاطىء عوض ذلك؟

استفهمت:

- لماذا تتودد الي هكذا الآن؟

- ألم نعقد معاهدة سلام منذ يومين؟ ام تفضلين احياء حفلة العداء بيننا؟ يؤسفني ان يكون تفكيرك ضيق الافق!

- انا ضيقة الافق؟

- نعم. لم يعجبك لقائي مع فيكي فقررت الانتقام مني.

حاولت تبرير جفائها:

- انا فتاة تقليدية. ولا احب الخداع.

قال بهدوء:

- كانت فيكي خطيبتي في الماضي. ومن الحماقة الادعاء ان واحدنا لا يعرف الآخر. علاوة على ذلك، من المفيد القاء نظرة على الماضي بدون ندم او اسف.

اجابت:

- من الصعب ان يصدق الناس رأياً كهذا. ولن يشعر السيد لوتن بالرضا التام عندما تلتقيان انتما الاثنين. ولو كنت في مكانه لما قبلت اي تبرير.

- هل يعني قولك انك ستغارين على زوجك؟

- حتماً اغار اذا رأيته في جلسة حميمة مع امرأة كان ينوي الزواج منها ذات مرة. وخاصة اذا لم يكن الطرف الذي فسخ الخطوبة.

رد ساخراً:

- بالله عليك، ما هذا؟ يسعدني ان اعرف مدى قدرتك على الغيرة. فهذا يدل على الأقل ان مشاعرك اعمق مما افترضت.

- انت لست في وضع لافتراض اي شيء.

قالت كلماتها بحدة، وقفزت على قدميها تهم بمغادرة المكان. اطبقت اصابعه القوية على منكبيها فسمرها فوق الكرسي. قال بعدوبة:

- انت تغمزين من قناتي باستمرار ثم تولين الادبار. ولكن ساحول دون ذلك من الآن فصاعداً.

ادركت عقم محاولة التملص منه، فالتفتت الى الوراء:

- دعني امضي في سبيلي يا جيلز. اعرف تماماً ان مشاعري لا تهمك البتة.

اجاب:

- انت مخطئة. ما هذه المراوغة الدائمة يا صغيرتي؟ اعترف لك انك فرضت وجودك علي رغم قامتك النحيلة. لست عاصفة هوجاء ممطرة يا ابيا، بل مجرد رذاذ خفيف يخضل البشرة على نحو خفي مدهش.

تموج صوتها بمرح مصطنع:

- يا لحسن العبارة! احب عقد المقارنة بيني وبين الرذاذ!

- هذا رأي صائب. هل ثمة اروع من المشي تحت المطر الناعم الهادىء؟

ردت:

- يسبب في بعض الأحيان زكاماً حاداً.

وقبل ان تتمكن من الاستمرار، ادار ظهره ومضى نحو طرف البركة العميق. وقف هناك لحظة يرمق الماء منتصب القامة في ملابس السباحة. رأته يغطس في الماء برشاقة، سابحاً بثبات الى ان بلغ الطرف الآخر. التقط انفاسه قليلاً، ثم سبح عائداً الى حافة البركة.

قال معنفاً:

- لا تكوني جبانة. هيا اسبحي!

ادركت ان رفضها لدعوته سيعتبره دليلاً على ترددها وارتباكها،

فكت ازرار فستانها وبدا جسمها في ملابس السباحة مكتنز الشكل رغم ضآلة حجمها. مدت قدميها بحذر، وزحفت نحو الماء بدون ان تغطس لعدم خبرتها في القفز. سبحت بتأن حتى بلغت حافة البركة التي ينتصب فوقها جيلز.

قال مازحاً:

ـ دخلت الماء باسلوب مخجل رغم مهارتك في السباحة. الم يعلمك احد كيفية الغطس في الماء؟

ـ كلا.

ـ هل ادربك انا على الغطس؟

فاجأها عرضه، فهزت برأسها موافقة بدون ان تمعن النظر في الموضوع. نهض على قدميه، مد لها يده وسحبها من المياه:

ـ والآن قفي على الحافة تماماً والصقي قدميك معاً. ثم انحني قليلاً وارخي جسمك.

ومضى يلقنها فن الغطس بتؤدة واتقان، وهي تعيد تكرار تعليماته الى ان اصبحت تمارس الغطس بعفوية. اعجبها هدوء اعصابه، وتمتعه برحابة الصدر وهو يتحمل اخطاءها ويشجعها على الاستمرار والجلد. كانت تخاله رجلاً سريع الغضب، حاد الطباع، وها هي تلمس ميزة جديدة في شخصيته تجذبها اليه اكثر فأكثر. وكان على استعداد لمواظبة تلقينها لولا ان اقتربت منه عمته وامرته بالتوقف. قالت محتجة:

ـ ان البنت تلهث كالحوت.

وتنبهت ابيا لتوها الى ضيق نفسها وهبوط صدرها وصعوده على نحو متواصل، فحاولت التنفس ببطء، وهي تصغي الى جيلز يؤنبها:

ـ كان عليك ايقافي من قبل.

وطوق كتفيها بذراعه، فتجمدت كقطعة من خشب. تركها وشأنها وكأن توددة لها تبخر فجأة. ادركت حماقتها وسوء تصرفها.

همت بارتداء فستانها عندما لحق بها جيلز، قال:

ـ ارتدي هذا الروب. كوني حريصة ايتها الثمرة الصغيرة، والا تساقطت عن غصنك قبل دنو موسم القطاف.

اشتعلت وجنتاها غضباً، فلفت جسمها بالروب جيداً، واندفعت الى الداخل. تمهلت في تبديل ملابسها قبل ان تهبط الى غرفة الاستقبال ثانية. لكن جيلز كان غادر المنزل ولم يرجع حتى الساعة الرابعة بعد الظهر. رأته يرتدي بذلة رسمية جديدة. ساورتها غيرة شديدة وهي تحسب انه عاد لتوه من تناول وجبة الغداء مع فيكي مرة ثانية. حدثها بريق عينيه انه قرأ ما يجول في ذهنها، فاكتفى بابتسامة ساخرة. خاطب عمته قائلاً:

ـ حجزت تذاكر السفر ليوم غد. تقلع الطائرة في ساعة مبكرة، السابعة والنصف صباحاً، وهذا يعني ان علينا مغادرة المنزل الخامسة والنصف.

سألته ابيا:

ـ انه وقت مبكر جداً.

ـ علينا قطع مسافة طويلة للوصول الى المطار، وننتظر هناك ساعة من الزمن قبل الاقلاع. اذا تأخرنا دقيقة واحدة نخسر التذاكر ويبتاعها اناس آخرون.

استفهمت:

ـ وماذا عن الملابس؟

ـ احزمي فساتينك القطنية واحذيتك الخفيفة المريحة. اننا متوجهون الى الجنوب حيث الحرارة مرتفعة جداً.

جلست ابيا تراقبه وهو يقلب بعض الأوراق. لفتها شكل اصابعه الدقيقة الطويلة، وتلك البشرة الضاربة الى السمرة. مد يده يفك قبة قميصه، فلاحظت حبيبات من العرق تنتشر فوق جبينه ووجنتيه. غامرها شعور قوي بالاقتراب منه ومسح عرقه براحتها. ارعبتها هذه الفكرة الطائشة، فنهضت مضطربة الاعصاب، واعلنت بصوت

خفيض عن ذهابها الى المكتبة بحثاً عن كتاب.

اختلت بنفسها في المكتبة، لكن شبحه ظل يطاردها. هل هذا هو الحب الذي حدثتها عنه اختاها؟ كم كان الغرام سهلاً بالنسبة اليهما؟ وماذا تستطيع ان تفعل بعد تورطها في مشكلة كهذه؟ اليس من الأفضل ان تنساه، وتنتظر ابتسام حظها ثانية فتربط حياتها برجل يفهمها وتفهمه، يحترمها وتحترمه؟

سمعت وقع اقدام تقترب من الباب، هرعت لتناول اول كتاب وقع نظرها عليه. دخل جيلز فجأة:

- زال الخطر الآن. يمكنك الانضمام الى عمتي.

شمخت برأسها:

- لم اكن اهرب من اي خطر.

- حقاً!

وقبل ان تتبين ما يبيته، خطا نحوها وانتشل الكتاب من يدها. رمقه قليلاً، رافعاً حاجبيه بدهشة وهو يقرأ العنوان:

- «معضلات الهند السياسية والاجتماعية والاقتصادية». يا له من كتاب ظريف مريح للاعصاب. انه يصلح تماماً للقراءة في امسية حارة.

خطفت الكتاب منه واعادته الى الرف. سمعته يقهقه قائلاً:

- اهنئك على صدقك يا ابيا. حاولي اختيار كتاب آخر.

قالت بفظاظة:

- حسناً. نعم جئت الى المكتبة هرباً منك. ولكن لماذا؟ لا اشعر بالراحة معك. انك تحرجني وتضغط على اعصابي.

احتج:

- انا لا اتعمد هذه الأشياء.

قررت مواجهته:

- انت تسخر مني دائماً، وترهق اعصابي. كفى. كفى. انك فظ الفؤاد.

- فظ الفؤاد؟ لم اتعمد ان اكون فظ الفؤاد منذ ان بدأت افهم مشاعرك. يبدو لي اني فشلت فشلاً ذريعاً.

سألته:

- ماذا تعني؟

صمت قليلاً ثم قال:

- لن اجيب على سؤالك. افضل الانتظار الى ان تجدي الجواب بنفسك.

وبينما هي منهمكة في فك لغز كلماته خرج بادي الاستياء.

وهكذا غاب جيلز عن المنزل حتى صباح اليوم التالي. رأته في الساعة الخامسة والنصف يشرف على حمل الحقائب الى السيارة. لم يكن الفجر قد بزغ بأنواره، لكن الحرارة ظلت مرتفعة، فاحست ابيا بالجو الخانق. اكتفى جيلز بالقول:

- ان عمتي في السيارة.

مضت ابيا وصعدت بجانبها. جلس جيلز في المقعد الأمامي قرب السائق، وانطلقت بهم السيارة.

كانت الشوارع مقفرة في تلك الساعة المبكرة. مع ذلك استغرقت الطريق وقتاً طويلاً قبل الوصول الى المطار. كان يزدحم بالناس ازدحاماً لا يوصف. واخيراً وصلوا الى منصة الخطوط الجوية الهندية، وشرع جيلز بانهاء الاجراءات الرسمية، وهو رابط الجأش وسط تلك الفوضى المرهقة، وكأنه يريد اثبات انتمائه البريطاني.

صعدوا الى الطائرة في الساعة السابعة والنصف تماماً. وبعد اقل من ستين دقيقة حطت الطائرة وسط بقعة صحراوية تقوم على طرفها بناية ذات طابق واحد.

وها هم يجتازون بعد لحظات طريقاً ترابية تحيط بها شجيرات كثيفة.

طافت ابيا بنظرها بحثاً عن قرية ارنجباد، فما رأت سوى فندقين حديثين ينتصبان وسط تلك الأرض القاحلة. مرت السيارة امام

الفندق الأول ثم انعطفت في اتجاه الفندق الثاني. ترجلوا وهم يتلقون التحية من حارس مسلح.

تساءلت ابيا:

- اين القرية؟

اجابت العجوز:

- انها على بعد عدة اميال من هنا. عندما زرت هذا المكان آخر مرة لم المح اي فندق، وهكذا نزلنا في اكواخ بدائية.

عقب جيلز:

- اما الآن فتبدل كل شيء ودخلنا العصر الحديث حيث ينعم السياح بالماء المثلج في غرف الطعام، والمناشف النظيفة في الحمامات.

قالت ابيا محتجة على سخريته:

- لا غنى عن وسائل الراحة.

كان الفندق يقع في بقعة ملائمة جداً. ويضم في داخله اثاثاً مريحاً وموظفين دائمي البشاشة. وبعد ان تناولوا طعام الفطور، توجهوا للتنزه في السيارة عبر قرية ارنجباد بسوقها الطريف الذي تهيم فيه بقرات تفتات على النفايات للبقاء على قيد الحياة.

عادوا الى الفندق وقت الغداء، ثم انطلقت بهم السيارة عبر حقول القطن والهضاب المتماوجة الى ان بلغوا الأراضي الصخرية الكالحة في ايلورا.

كانت العجوز الآنسة بيتمان ممتلئة حيوية ونشاطاً وهي تتنقل من مكان الى آخر. اما ابيا فهدها الارهاق بعد ان شاهدت بعض التماثيل والأعمدة، فقعدت ارضاً ورفعت وجهها نحو الشمس.

- الا تبهرك هذه الآثار القديمة؟

فتحت عينيها وهي تسمع صوت جيلز، ورأته يرمقها بغبطة خفية. كان يضع يديه في جيبي بنطاله، وينفتح قميصه الرياضي عند العنق. وبدا شعره تحت اشعة الشمس اشد لمعاناً مما اضفى عليه

مظهراً جذاباً ومقلقاً. قالت ابيا:

- لا يوجد فرق كبير بين أثر وآخر بالنسبة الي. احب التمعن في الصور الزيتية لساعات وساعات، لكن هذه الصخور والتماثيل لا تعني لي شيئاً. وهذا يجعلني سخيفة في رأيك كما افترض.

- كنت اعتبرتك اشد سخافة لو تظاهرت بعكس ذلك. اصبحت معتاداً على استقامة رأيك وصدقك الآن.

- وحتى الى درجة الوقاحة؟

ابتسم ابتسامة عريضة:

- لن اعترض على وقاحتك في يوم دافىء جميل كهذا اليوم.

فكرت قليلاً وكأنها تحاول التنبؤ بالمستقبل، ثم نهضت على قدميها وسارت وراءه لتطوف حول مكان جديد. استفاض في الحديث عن تاريخ الآثار، والجهد الذي بذله الصناع والحرفيون لحفر تلك التماثيل في قلب الصخور الشاهقة. وجدت نفسها تزداد شغفاً بمعرفته الواسعة، واسلوبه المتقن في الشرح وابداء الرأي. رأتها فرصة سانحة للتعرف اليه اكثر، وسبر اغوار شخصيته. وتبادرت الى ذهنها اسئلة عديدة حول طفولته وتدرجه في الحياة. هل كان دائماً عميق التفكير، دقيق العبارة، يحسب حساب كل شيء؟ قال فجأة:

- ماذا قررت؟

- حول ماذا؟

- حولي انا. لاحظت انك تحاولين سبر اغواري.

افتر ثغرها:

- كنت اتصورك وانت ولد صغير، وهل كنت دائماً رابط الجأش؟

- اهكذا تنظرين الي؟ كنت ولداً ذكياً وخجولاً وعنيداً. كنت متعلقاً بوالدي كثيراً كرجل رائع ومهندس وشاعر، واردت ان اكون مثله.

- هل كتبت الشعر ايضاً؟

تمعن في وجهها:

- ما زلت اكتب القصائد. وسأتلو عليك بعضها في المستقبل.
- في المستقبل؟
- سأقراها لك عندما يحين الوقت وتكونين مستعدة للاصغاء.

استاءت من تلميحه الى عدم نضجها. والنظر اليها كمجرد سكرتيرة ومرافقة لعمته، فتاة ساذجة اساء فهمها عندما التقى بها ويحاول الآن تهدئة روعها فيجعلها تشعر انها مراهقة شبه عادية. ما احمقها عندما اعتبرت مجيئه الى ارنجباد دليل استمتاعه بصحبتها! انى لأنه يريد الهرب من بومباي، والابتعاد عن فيكي لوتن. اطمأنت قليلاً الى هذه الفكرة، فهو على الأقل يبذل جهده لمقاومة اغراء زوجة رجل آخر. قطع حبل تفكيرها:

- هل تشربين بعض العصير؟
- هنا؟ من أين لك العصير؟

فتح حقيبة صغيرة، واخرج منها ترمساً مليئاً بعصير الفاكهة. صب لها الشراب في كوب صغير، فقالت تبدي اعجابها:

- هل انت دائماً على اهبة الاستعداد تحسباً لأي طارىء؟
- انا سائح متمرس.
- انك تفيض ثقة بالنفس!

علق:

- يلوح لي ان هذا الأمر يقلقك.

قالت بلهجة جادة:

- ربما. من الصعب كسب رضا الذين يطمحون الى الكمال.
- يسرني ان امثل الرجل الكامل في نظرك!

هالها ان يكون فطن الى وقوعها في حبه. قالت مرتبكة:

- اين الآنسة بيتمان؟
- تلتقط الصور لأحد الآثار. لن يصيبها اي مكروه طالما ان السائق معها.
- انت تقلق عليها كثيراً؟

- نعم فهي امرأة عجوز تتدفق حيوية غريبة. الحمد لله انك كنت معها عندما توعكت صحتها.

تلقت ابيا قوله بغبطة فائقة:

- اذن لم تعد تخشى مؤامراتي لاستغلالها؟

تجهم وجهه:

- لا تذكريني بكل ما قلت لك. ما اغباني!

ابتسمت وجرعت بعض العصير. ارتسم في محياه لغز عميق فتاقت الى اختراق سره الدفين. قالت:

- والآن حان دوري للتكهن بما يجول في ذهنك.

اقر معلناً:

- كنت احاول رؤية نفسي وفق وجهة نظرك. ولم يعجبني ما رأيت.

احتجت:

- انت لا تعرف حقيقة مشاعري.
- سأحاول، قلت اني مغرور واتوقع من الآخرين الكمال الذي اتصف به، مما يعني اني متعجرف، معتد بنفسي، ولا اتعاطف مع غيري.
- كلا. كلا. انك تظلم نفسك كثيراً. ليس هذا رأيي اطلاقاً.
- اذن كيف تنظرين الي؟

قالت مراوغة:

- ربما اخبرتك في المستقبل. لا تجيد وحدك هذه اللعبة يا جيلز!

اصيب بالدهشة لحظة ثم ضحك:

- قد تكون قامتك قصيرة جداً يا آنسة وست، لكن لسانك يعوض عن كل شيء.

وشدها من يدها على نحو مباغت. وظل ممسكاً بها عندما هبطت عمته عليهما وهي تمسح عرقها المتصبب بمنديل كبير. هرع ابن اخيها يقدم اليها كوباً من عصير الفاكهة.

قالت العجوز وهم يصعدون الى السيارة:

- لا اريد سوى الاستحمام والخلود الى السرير. اما انتما ايها الشاب وايتها الشابة فدبرا امركما الليلة.

فغرت ابيا فاها لتعلن انها ستلزم غرفتها هي الأخرى، ثم ارتأت عكس ذلك. ان استمرارها في تفادي جيلز سيساعده على اكتشاف سرها. قال جيلز:

- ان الحياة الليلية في ارنجباد شبه معدومة يا ابيا. لا اعرف كيف اعتذر منك.

ضحكت قليلاً:

- لا اطلب اكثر من كرسي استريح عليه بعد عناء الزيارة المرهقة.

- حسناً سألقاك في بهو الفندق الساعة الثامنة.

ذهبت ابيا الى غرفتها، واستمتعت بعض الوقت بحمام حار. فتحت حقيبتها لتختار فستاناً ملائماً. ليتها جلبت بعض الملابس الزاهية. ندمت على اصغائها الى نصيحة جيلز للاكتفاء بالثياب القطنية. ترددت قليلاً، ثم ارتدت ما توفر لديها. لم تشعر بالاستياء الشديد، من الأفضل لها ان تجلس مع جيلز في فستان قطني عادي فلا تراوده الشكوك حول نواياها. لا معنى للتبرج الآن وهي تمر في مرحلة حساسة في بناء علاقة ثابتة مع هذا الرجل الغامض.

رحب بها جيلز بأسارير متهللة، وقادها الى طاولة صغيرة قرب النافذة. قدم لها النادل لائحة الطعام، فوضعتها جانباً وطلبت طبقها المفضل من المآكل الهندية. وما لبث جيلز ان حذا حذوها، وكأنه يريد الاعتذار منها باسلوبه الخاص.

بدأت ابيا في الكلام عن طقس الهند ومقارنته بطقس انكلترا الضبابي عندما لمحت بطرف عينيها فيكي لوتن تتقدم منهما في صحبة زوجها طوني. وما ان وقع نظر جيلز على خطيبته السابقة حتى امتقع لونه. رحب بهما بفتور ودعاهما الى الجلوس.

كانت فيكي بالغة الجمال كعادتها، ترتدي فستاناً حريرياً باهظ الثمن. حدجت ابيا قليلاً، ثم علقت:

- ارى انك تتجولين في اقاصي الهند. لا شك ان جيلز دليل سياحي رائع...

قاطعها جيلز:

- وماذا تفعلين انت هنا؟

- ضقت ذرعاً بمدينة بومباي، واقترحت على زوجي العزيز ان نزور هذه الآثار الخلابة. يا للصدفة العجيبة. لا بد ان نذهب معاً الى ايلورا.

اغتنمت ابيا الفرصة:

- زرنا ايلورا نهار اليوم. وننوي الذهاب الى مكان آخر غداً.

تنهدت فيكي وهي تشد على يد زوجها:

- يا لحظنا البائس. تصور يا جيلز تركني زوجي وحيدة في بومباي، ورحل ليراقب الطيور.

تمتم زوجها طوني:

- كانت رحلة ممتعة، وفيكي لا تطيق الطيور، فلم يكن في اليد حيلة.

نهضت فيكي واقفة، وودعتهما قائلة:

- اذن لا بد من الغاء زيارة ايلورا غداً يا طوني. سننضم الى جيلز وعمته، ونذهب معهما. وانت يا آنسة وست سنراك معهما اليس كذلك؟

استدارت ومضت مع زوجها بدون ان تتيح لابيا الاجابة عليها. نظرت ابيا الى جيلز تنتظر منه التعليق على وصول فيكي المفاجيء. لكنه واظب على التهام طعامه صامتاً. فاضطرت ابيا لطرح السؤال:

- هل كنت تعلم بمجيئها الى هنا؟

القى جيلز شوكته بعنف فوق الصحن:

ـ هل هذا سؤال ام اتهام؟ سبق لي ان حذرتك من مغبة اصدار احكامك علي!

ـ لم اكن اصدر اي حكم.

ـ حقاً؟

ـ كل ما في الأمر...

ـ اعرف ما الذي تودين قوله. هل نسيت ان خطيبتي السابقة كانت برفقة زوجها؟ ام فاتتك ملاحظة هذه التفاصيل الصغيرة؟

ارتعشت شفتا ابيا. صدمتها حدة طبعه، رغم معرفتها انها تتحمل جزءاً من المسؤولية. كانت عيناه تشتعلان غضباً وهو يدفع كرسيه الى الوراء وينتصب واقفاً. لحقت به قائلة:

ـ سأمضي الى غرفتي. يمكنك الانتظار هنا واستقبال اصدقائك وحدك.

جذبها نحوه بعنف:

ـ اياك ان تبرحي مكانك.

ادركت عقم المقاومة، فجلست معه على مقعد في ركن القاعة. خاطبها بهدوء:

ـ لا افهم تصرفك الأرعن هذا، لماذا لا تفصحين عن حقيقة نواياك؟

ـ ليس لدي ما اقوله. كل ما في الأمر ان مقاييسنا الاخلاقية تختلف عن بعضها.

ـ وما هي هذه المقاييس؟ الم يسبق لك ان وقعت في حب رجل غير مناسب لك؟ ام انك من تلك الفصيلة التي لا ترتكب خطأ في حياتها؟

ردت:

ـ هل تعي ما تقول؟ لم اقع في حب احد بعد. واذا كان الحب كما تتصوره انت، فلا اريد هذا الشرف.

ـ ثابري على التصرف هكذا، ولن تنالي شرف الحب ابداً.

ارتجف فمها، فحاولت اخفاء ارتباكها. استطرد:

ـ لست بريئة وساذجة فحسب، بل جامدة وضيقة الافق ايضاً. لا اظن انك ثمرة ستنضج ابداً. واخال انك ذبلت على الغصن وانتهى الأمر.

استشاطت غيظاً:

ـ كفى. انا ذاهبة الى غرفتي. واياك ان تمنعني.

وما ان وصلت الى غرفتها حتى ارتمت فوق سريرها وغرقت في البكاء الحار. ظلت تنوح الى ان جفت دموعها. نهضت وغسلت وجهها بالماء البارد، ثم جلست قرب النافذة تحدق في الظلام الداكن، وتضج في صدرها آلاف الاسئلة المؤلمة.

ماذا تفعل غداً صباحاً؟ هل تعود الى بومباي وتقفل عائدة الى بلدها؟ انها مجرد فتاة عادية لا تتمتع الا بمسحة من الجمال. وقليل من الجاذبية. كيف تنافس امرأة مثل فيكي؟ امرأة خبيثة، جميلة ومثيرة.

ما الذي اق بفيكي الى ارنجباد؟ هل تعمدت لقاء جيلز وبمعرفة مسبقة من زوجها؟ هل اراد التأكد من حبها له، فتركها زوجها في بومباي ومضى بحثاً عن طيوره، وليدع لها فرصة اتخاذ قرار نهائي بعد رؤيتها جيلز؟

هذه اسئلة لا تجيب عليها سوى فيكي، فكرت ابيا، وجيلز ايضاً.

تكومت في فراشها مهيضة الجناح كئيبة، ولم تستسلم الى ملاك النوم حتى ساعة متأخرة من الليل.

كادت ان ترفض الذهاب لزيارة أجنتا صباح اليوم التالي، لولا مراعاتها لمشاعر العجوز الآنسة بيتمان. ولذلك لم تتظاهر ابيا بالمرض. كانت تعاني من صداع رهيب، فعالجته بتناول بعض الحبوب وقليل من الشاي.

اطلت على جيلز برزانة بالغة، نظر اليها لحظة ثم تابع تناول

الافطار مع عمته. بدا جيلز مرهقاً تعلو وجهه مسحة من الكآبة، ولم تجد تفسيراً لمنظره المحزن، هل ما زال يتوق حناناً الى خطيبته السابقة، ام ان ضميره يؤنبه؟

ليفعل جيلز فارو ما يحلو له، خاطبت نفسها. اما آن له ادراك مدى حماقته وهو يلهث راكضاً وراء فيكي لوتن، هذه المرأة اللعوب؟

اما العجوز فكانت مرحة كعادتها، لا يقلقها شيء في الحياة، او هكذا بدت وهي تسير بملابسها وقبعتها الواسعة، وكأنها اقرب الى المظلة. احست ابيا بضآلة حجمها وهي تمشي قربها، وازدادت ضآلة عندما انضم اليهما جيلز بقامته الفارعة. صعدوا الى السيارة، وظل هذا الرجل المتجهم غارقاً في الصمت. كان يجلس كالمعتاد بجانب السائق ويسمر نظره امامه. قالت العجوز الآنسة بيتمان:

ـ امامنا رحلة طويلة. ستون ميلاً من الازعاج.

وكم كانت العجوز صادقة بعد ان اخذت السيارة تنهب بهم الأرض نهباً، وتتمايل يميناً ويساراً فوق طرق شبه معبدة، تتخللها الحفر، وتسدها في بعض الأحيان الاحجار الكبيرة.

واخيراً وصلوا الى اجنتا بعد ساعتين. كانت اجنتا وادياً صغيراً حفرت فيه عشرات الكهوف التي اكتشفها صدفة واثناء رحلة صيد ضباط بريطانيون العام ١٨١٩. وكان في طليعة هؤلاء الضباط الكابتن جون سميث الذي عثر على سلسلة كاملة من الكهوف عمرها اكثر من الفي سنة.

وما ان بدأوا بالتجول في تلك الهياكل المحفورة داخل الجبل، حتى لمست ابيا مدى اطلاع جيلز. ومعرفته الواسعة مما اكد لها مجيئه الى هنا اكثر من مرة.

وسرعان ما احست بالتعب وهي تتنقل بين اثر وآخر. لكن المكان غص بالناس والسياح حتى اضطرت ابيا الانتظار مدة طويلة قبل ان تتمكن من الدخول الى مكان تود مشاهدته. وما ان اطلت الظهيرة حتى رفعت العجوز يديها استسلاماً، واعلنت عن رغبتها في نيل

قسط من الراحة، ثم قالت:

ـ اما انتما الاثنان فتابعا التمتع بهذه الآثار. سأجلس في الظل وانتظركما.

عقب جيلز وهو يجلس على حافة جدار قرب درجات السلم الصخري:

ـ نحتاج جميعاً الى قسط من الراحة.

جلست ابيا قربه على الجدار، محافظة على مسافة معقولة تفصلها عنه. اخذت تمعن النظر في كهف امامها. سد مدخله باب خشبي يتم قفله في الليل لردع العابثين من تحطيم الرسوم والتماثيل. وحفرت حول الباب كوى صخرية لا تكاد تتسع لجسم رجل صغير. اشاحت ابيا وجهها صوب درب لولبي يعج بالناس الفضوليين. ولمحت بين تلك الجموع المتدافعة رأس امرأة عرفته لتوها. انها فيكي لوتن. واحست بجيلز يطلق زفرة عميقة، فادركت انه رآها هو الآخر. قال يخبر عمته:

ـ فيكي وزوجها هنا. وصلت الى ارنجباد ليلة امس.

ردت العجوز محتدة:

ـ لا يفاجئني مجيئها الى هنا. فهي قطعت قبل ذلك ستة آلاف ميل لتراك. فما اهمية رحلة قصيرة من بومباي بالنسبة اليها؟

قال بجفاف:

ـ افهم الآن سبب انحياز ابيا ضدي.

اغتبطت العجوز قائلة:

ـ يا لك من فتاة مدهشة. هل حاولت اصلاح منطقه الأعوج ايضاً؟

توردت وجنتا ابيا، وكانت فيكي تهتف صاخبة:

ـ ها نحن نلتقي ثانية!

وهبطت الدرجات الصخرية متبرجة بفستانها الحريري وحذائها الواطىء. بدت في كامل حيويتها رغم الحرارة المرتفعة. لكن زوجها

كان منتفخ الأوداج يلهث وراءها مرهقاً.

تظاهرت ابيا بالنظر الى الوادي وتفحص معالمه. ظل صوت فيكي يرن في اذنيها فيهزها هزاً. واخيراً قال جيلز:

- هيا بنا يا ابيا.

وقفت وهي تراقب يد فيكي ملتفة حول ذراع جيلز. قالت فيكي:

- اظن ان الآنسة ابيا وست تفضل مرافقة عمتي بيتمان. وكذلك زوجي العزيز طوني. اما انا فسأستفيد من معرفة جيلز الواسعة بهذه الآثار.

وهكذا خلفت زوجها وراءها، واختفت مع جيلز بين زحام الناس.

طافت ابيا مع طوني لوتن والعجوز من كهف الى آخر. وفجأة وجدت نفسها وحيدة داخل حرم مهيب يتوسطه تمثال. كان المكان شبه مظلم، فاقتربت من التمثال واخذت تتأمل في دقة نحته. تراءى لها شبحان في الزاوية الداكنة. وما لبثت ان تبينت شكل جيلز، وخالته يعانق فيكي عناقاً حاراً. اغمضت عينيها، وهرعت الى الخارج.

رأتها الآنسة بيتمان فسألتها بلهفة عن جيلز. اعلنت ابيا جهلها بمكان وجوده، وادارت ظهرها لاخفاء ارتباكها. وماهي سوى لحظات حتى اطل جيلز مكفهر الوجه هاتفاً:

- اين كنت يا عمتي؟ بحثت عنك في كل مكان؟

- اين انت يا عزيزي؟ وماذا جرى لفيكي؟

- ها هي قادمة صوبنا.

طأطأ طوني لوتن رأسه، وكأن حدسه حدثه بما كان يخشى عقباه. وصلت فيكي واعلنت لتوها:

- لماذا لا نعود الى الفندق الآن؟ ويمكنكم ان تأتوا في سيارتنا جميعكم. لا حاجة الى سيارة ثانية.

تمنت ابيا لو تنشق الأرض وتبتلعها. كيف ستقضي ساعتين داخل السيارة قرب فيكي، وتشهد حركاتها الرعناء، وتصغي الى كلماتها النابية؟ لا. لن تذهب معهم. فكرت في اختلاق عذر للتخلف عن العودة الى الفندق. قالت:

- اذهبوا بدوني. ثمة اشياء كثيرة ارغب في مشاهدتها والتمعن فيها. سأطلب من احد نزلاء الفندق ان يقلني معه عند المساء.

انتحى بها جيلز جانباً:

- ما دهاك يا ابيا؟ لماذا ترفضين مرافقتنا الآن؟

- انا لا ارفض شيئاً. اريد اشباع فضولي والتعرف اكثر على هذه الآثار وتاريخها.

لوح بيده:

- أف لك. انت دائماً تسيئين فهمي. لن اغفر لك هذه الهفوة.

قالت بأسى:

- ستكتشف بعد فوات الأوان من يرتكب الهفوات المميتة.

تركها وشأنها وانضم الى المجموعة. ودعت ابيا الآنسة بيتمان وتوجهت نحو كهف قريب. كانت تضيء من داخله اضواء خافتة، ثم لم يلبث ان اضحى شبه مظلم. اخذت تنقل النظر بين الرسوم والتماثيل، وتبدي اعجابها بهذا الفن الرائع. يا له من نحت جميل! تأوهت تبدي اعجابها، وتكبت لواعجها.

قضت وقتاً طويلاً داخل الكهف الى ان شعرت ببعض الاعياء. لمحت عن يمينها كوة صغيرة في الجدار. صعدت اليها وتكومت في داخلها ملتفة بسترتها القطنية. هاجمها النعاس، فلم تعد تدري اهي في حلم ام يقظة. مرت في خيالها اشباح غابرة، وراحت تهذي كلمات وعبارات تبادلتها مع امها وصاحب المكتبة وجيلز وسائق السيارة.

وفجأة ارتطم ظهرها بنتوء صخري وراءها، ففتحت عينيها مذعورة. كان الظلام يلف المكان بعباءة سوداء قاتمة. استطاعت

تبين عقارب ساعتها، فكانت تشير الى التاسعة ليلاً.

قفزت الى الأرض، وحاولت الاتجاه نحو الباب الرئيسي. تعثرت قدمها، فارتطمت بتمثال صغير. اتكأت عليه تفكر في مخرج من ورطتها. صاحت بأعلى صوتها، فتجاوب صداه في اركان الكهف وارتد الى اذنيها.

يا للظلام المدلهم! كيف ستشق طريقها وتتبين معالمه؟ اين الباب؟ كيف دخلت وظلت كل هذه المدة بدون ان يراها احد؟ واين مضى العمال والفنانون الذين راقبتهم يرممون بعض الرسوم؟ بدا المكان مقفراً، يخيم عليه صمت القبور.

اخذت تزحف بصعوبة، ثم تبينت دهليزاً ضيقاً فمشت عبره. مرت دقائق معدودة خالتها دهراً مديداً. وهي لا تدري ما اذا كانت تتقدم الى الأمام ام تتجه نحو عمق الكهف وزواياه الغائرة.

واخيراً وصلت امام الباب الخشبي. مرت بيدها فوقه، باحثة عن القفل في وسطه، والآن اين المفتاح؟ كان الباب موصداً باحكام. تراجعت الى الوراء، وراحت تتسلق بعض الدرجات حيث تراءت لها كوة مفتوحة في اعلى الجدار. زحفت ببطء شديد، ثم تدحرجت الى الأرض ثانية. توجهت نحو الباب ثانية. قبضت على مزلاجه وسحبته، فانفتح الباب اخيراً. وقفت في الخارج والظلمة تلفها بوشاحها. كان عليها هبوط عدد من السلالم لتبلغ المدخل الرئيسي. وادركت ان هذه المهمة تستغرق ساعة من الزمن. تنفست بقوة لتنشق بعض الهواء المنعش. ثم خطت خطوتها الأولى. ما هي الا لحظات حتى كانت ركبتاها تصطكان ذعراً وهي تحث الخطى مسرعة. زلت قدمها، فالتوى كاحلها، وشعرت بوخز ألم حاد وكأنه مئات الاشواك.

تابعت المسير مترنحة، وهي تتمايل ذات اليمين وذات اليسار. ارتسمت صورة جيلز امامها. اين هو الآن؟ ماذا كان يفعل لو وجد نفسه في مأزق كهذا؟ يا ليتها اصغت اليه وعادت معهم الى الفندق!

ظلت صورة جيلز تلاؤمها كالشبح. وقفت قليلاً زائغة البصر، مرهقة الاعصاب، ويهد جسمها ألم شديد: صاحت بأعلى صوتها:

- جيلز! جيلز!

ردد الوادي صدى الصوت. واستمرت في الصياح. وفجأة سمعت صوتاً بعيداً يناديها:

- ابيا. ابيا أين انت؟

وادركت لتوها انه صوت جيلز. بقيت في مكانها مستلقية على الصخور لا تستطيع حراكاً. وما هي الا لحظات حتى كان جيلز ينحني فوقها مؤنباً:

- يا لك من فتاة حمقاء! ماذا تفعلين هنا، وفي هذه الساعة المتأخرة؟

اجهشت بالبكاء ورفعت ذراعيها نحوه. حملها برشاقة ومضى بها الى السيارة. كانت لا تزال العبارات تخنقها فلا تقوى على الكلام. التصقت به كطفلة صغيرة وجلة، والقت رأسها فوق صدره تستمد منه بعض الثقة والطمأنينة. وتمكنت من الاشارة الى الآلام المبرحة التي تكوي اعضاء جسمها قبل ان تتوقف السيارة امام الفندق بقليل.

حملها جيلز ثانية بين ذراعيه وهرع بها الى غرفته، ثم رفع سماعة الهاتف ليستدعي الطبيب.

تحلقت حولها المجموعة المألوفة بكاملها، العجوز، وفيكي، وزوجها طوني. وراحت الاسئلة تنهال عليها، وهي تعاني صداعاً رهيباً، ويزداد الوجع المؤلم في قدمها. وكان جيلز يجلس بجانبها على السرير، وهو يمسك بيدها يحاول تهدئة روعها.

قالت فيكي:

- يا للمصيبة! انها فتاة مجنونة لا اجد تفسيراً لتصرفها.

اقتربت منها العجوز مستاءة:

- الحمدلله يا عزيزتي. انك لا تزالين على قيد الحياة، وهذا اهم

شيء الآن.

تابعت فيكي ساخرة:

ـ نعم لا تزال على قيد الحياة. مجرد مسرحية. تريد لفت الانظار اليها.

تجهم وجه جيلز:

ـ ما هذا الهراء يا فيكي؟ ان ابيا فتاة ناضجة وامامها مستقبل زاهر. ضلت سبيلها وسقطت فوق تلك الصخور اللعينة.

قالت ابيا بشق النفس:

ـ سامحك الله يا فيكي. لم اكن اعرف اني اجيد تمثيل مأساة كهذه...

قاطعها جيلز:

ـ اطمئني يا عزيزتي. كل شيء على ما يرام. وآن الأوان لاعلان خطوبتنا. لا حاجة الى الاسرار بعد الآن.

هتفت ابيا:

ـ ماذا؟ خطوبتنا؟

انفرجت اساريره:

ـ هذا ما حاولت ان اقوله لك منذ عدة ايام، ولم تصغي الي ايتها الفتاة الحمقاء.

علقت العجوز بيتمان:

ـ هذا ما كنت اتوقعه. انتما مثال الانسجام التام.

قالت فيكي بازدراء:

ـ يمكنك تأليف الروايات الغرامية منذ الآن فصاعداً عوض الروايات البوليسية (واستدارت نحو جيلز) لا اصدق اية كلمة تقولها. انت لفقت القصة كلها.

هز جيلز كتفيه:

ـ كيف الفق قصة كهذه؟

ـ لأنك لم تقل شيئاً عنها امامي.

احتضن ابيا بحنان:

ـ انت آخر من اخبره قصة كهذه. والتمس المعذرة الآن. اريد اخذ ابيا الى غرفتها.

عندما اصبحا داخل المصعد، استطاعت ابيا الافصاح عن رأيها:

ـ اعرف انك كنت مستاء من فيكي نتيجة تطاولها علي. ولكن جوابك لها اذهلني. وظهرت امام الجميع اكثر حماقة.

ـ سنناقش الموضوع فيما بعد.

اصرت:

ـ سنناقش الموضوع الآن. لماذا اختلقت قصة الخطوبة؟

قال:

ـ آلمني هجومها عليك واردت تلقينك درساً.

ـ ولكنه اسلوب دنيء.

اجاب بسرعة:

ـ لم اقصد ان ابدو دنيئاً.

وانفتح باب المصعد، وكان الطبيب يقف منتظراً امام غرفتها.

صمتت ، ولم يحاول جيلز الافصاح اكثر عن نواياه. استلقت على سريرها، واستسلمت لعناية الطبيب وهو يضمد كاحلها. قال جيلز بعد قليل:

ـ انت في حاجة الى الراحة الآن. سأكون في الطابق الاسفل اذا كنت تريدين شيئاً ما.

قالت بجفاف:

ـ لا اريد اي شيء. ارجوك دعني وحدي الآن.

مضى جيلز في سبيله، ونظر اليها الطبيب متعجباً:

ـ يبدو انك تعانين من ألم مبرح؟

اجابت:

ـ قدمي لا تؤلمني، بل قلبي الجريح.

١١ - كيف تستمر في لعب دورها المقيت وتتظاهر بأنها خطيبة جيلز؟ يبدو ان حياتها تزداد تعقيداً ولا تعرف كيف تنقذ نفسها من هذا المأزق. . .

لم تلبث ابيا ان غرقت في نوم عميق بعد ان اشار عليها الطبيب بتناول عقار مسكن. ونهضت صباح اليوم التالي يلف كاحلها ضماد ابيض، غير ان الألم تضاءل كثيراً. وهكذا بدأت تفكر مجدداً في الدوافع الخفية التي حملت جيلز على اعلان خطوبتهما.

تبادر الى ذهنها خوفه من وقوعه في شراك فيكي مرة ثانية. واذا كان هذا هو الدافع الحقيقي، فهي حتماً ارادت منه مقاومة اغراء خطيبته السابقة، ولكنها لم تتصور نفسها مجرد اداة يستخدمها جيلز لحماية نفسه.

سمعت قرعاً خفيفاً على الباب. ثم دخل جيلز شاحب الوجه، لكنه احتفظ بكامل اناقته. قال وهو يقترب من السرير:

- يبدو عليك التحسن. عندما تتناولين طعام الافطار، سأمضي بك الى المستشفى لتصوير كاحلك بالأشعة.

اجابت:

- لا ضرورة لذلك. لم اكسر اي عظم من عظامي.

- ربما كان هناك كسر طفيف لا تشعرين به. وتهمنا سلامتك كثيراً.

- تقصد سلامة كاحلي؟

- كلا. سلامتك عامة. هل يشغل بالك ما قلته امام فيكي؟

- انت الذي بادرت الى طرح الموضوع! لا يمكننا الاستمرار في هذه الخطوبة يا جيلز. من الأفضل لك اطلاع فيكي على الحقيقة، وان المسألة مجرد نكتة عابرة.

- وما يجعلك تفترضين انها نكتة او اضحوكة؟

تجاهلت ابيا سؤاله:

- قل لها الحقيقة، واوضح لها كيف انك لا تستطيع مواجهتها الا اذا تسترت وراء ظهر امرأة اخرى. ولا تتعب نفسك في انكار الواقع لاني رأيتكما معاً امس في احدى المغاور. واحمد الله ان زوجها لم يشاهدك هناك.

قال بهدوء:

- اذن كحلت عينيك بذلك المنظر. اهذا هو سر غضبك؟

- ان اعلانك خطوبتنا هو الذي اغضبني اكثر من عناقك لها. انك تحاول استخدامي كغطاء ليس اكثر.

ارتعش صوتها، فطأطأت رأسها بأسى. مشى جيلز ببطء ووقف قرب النافذة. كان وجهه يفيض جمالاً رغم امتقاع لونه. غير انها لاحظت مدى اضطرابه وحيرته، فهدأ روعها قليلاً. سألها بعد صمت طويل:

- هل جرحت مشاعرك الى هذا الحد؟ هل تجدين الخطوبة امراً بغيضاً؟

- ابغض ان اكون مجرد اداة.
- ولكن لا تبغضين ان تكوني خطيبتي اليس كذلك؟
ترددت في كشف خفايا مشاعرها، قالت بفتور:
- اكره التظاهر بالكذب.
عاد يقف قرب السرير، وقال محتداً:
- اذن تريدين فسخ الخطوبة، وتدمير حياتي؟
قطبت حاجبيها:
- لا تقلق. ستدبر امرك. انت رجل ماهر.
- لست ماهراً كثيراً وفي الواقع اعتقد اني رجل احمق.
قالت مشاكسة:
- اتمنى لو تتركني وشأني الآن.
- لا ترتبكي. انك جميلة جداً هذا الصباح، وبدون اي مساحيق.
اجابت:
- لا تتوهم ان الكلمات المعسولة ستجعلني طوع بنانك.
- لم يخطر في بالي شيء كهذا.
حدجته متمعنة في قسمات وجهه. بدا لها في منتهى الجدية، وتمنت من اعماق قلبها لو ان خطوبتهما حقيقية، وبعد ان يقع جيلز في غرامها. ولكن ما هذه الحماقة؟ ان جيلز رجل عملي، وربما اعتبرها مجرد فتاة ساذجة.
قالت باستياء:
- اعتقد انك تعتبرني فتاة صغيرة السن لم تنضج بعد. ولهذا السبب تستخدمني تحقيقاً لمآربك عندما يحلو لك.
- هذا رأي لا اوافق عليه.
طاف بنظره فوق ذراعيها وعنقها، فرفعت اللحاف تستر نفسها.
ثم اعلنت:
- انت تفهم تماماً معنى كلامي، لا تحاول التلاعب بالالفاظ.

اجاب:
- ولكنك تسيئين فهمي. لماذا تحطين من قدر نفسك باستمرار؟ اوافق على كونك يافعة وبريئة، ولكنك تتمتعين بجمال هادىء يزداد بروزاً مع مرور الأيام.
فقدت السيطرة على اعصابها:
- اذا لم تكف عن هذه الخزعبلات يا جيلز، فسأتوجه هذه اللحظة الى غرفة حبيبة قلبك واخبرها ان الخطوبة اكذوبة كبيرة.
انحنى فوق السرير قليلاً:
- اذن لم يكن في نيتك اطلاعها على الحقيقة. تعززت ثقتي بك. استمري في لعب الدور بعض الوقت. انها مسألة حيوية.
تنهدت ايبا بلوعة وهو يذكرها بضرورة ذهابها معه الى المستشفى قبل ان يغادر الغرفة.
استغرقت زيارة المركز الطبي المحلي فترة قصيرة من الزمن. ولم تظهر صور الأشعة وجود اي عظام مكسورة. لكن الممرضة نصحتها بالراحة لمدة اسبوع. وعندئذ قرر جيلز ان يعودوا الى بومباي فتبقى في منزله الى ان تتعافى تماماً، كما اخبرها وهو يحجز تذاكر الطائرة بقدرة عجيبة تدل على مدى نفوذه واتساع شبكة علاقاته.
كانت ايبا تعبر بهو الفندق بمساعدة احدى الخادمات، فوجدت نفسها وجهاً لوجه امام فيكي لوتن. علقت فيكي:
- كانت خطوبتك مفاجأة تامة. كيف كتمت هذا السر عن الجميع؟
- نزلت عند رغبة جيلز، فأخفيت الأمر عن الجميع.
- يا للغرابة، ان الناس عادة يفخرون بأشياء كهذه ويذيعون الخبر بسرعة. واعرف ان معظم الفتيات يضحين بكل شيء من اجل جيلز واذا خطبت احداهن رجلاً كهذا لكانت نشرت النبأ في كل مكان.
- انا لست كمعظم الفتيات يا سيدة لوتن. وربما لهذا السبب يحبني جيلز.

امتقع لون فيكي، وهتفت:

- لا اظن انه يحبك. ان ضميره يؤنبه لاعتقاده انه يسبب انهاء حياتي الزوجية. ولكن ما ان يدرك عزمي على ترك زوجي في مطلق الأحوال، حتى يكف عن مقاومتي. يجب واحدنا الآخر، ولنا الحق في التمتع بالسعادة.

- أين كان حبك عندما طلب منك الزواج من قبل؟

غمرت وجه فيكي موجة من الأسى والحسرة:

- لم تعجبني فكرة التنقل من قرية هندية الى اخرى. كنت انسانة مغفلة وسببت الاذى له ولي. وادركت فور زواجي من طوني اني ارتكبت خطأ فادحاً.

تاقت ابيا الى صفع وجهها صفعة قوية. لكنها كبتت مشاعرها قائلة:

- لست مهتمة باخطائك. هذه مسألة تعني جيلز وحده، وطالما انه يحبني...

- اذا كنت تؤمنين انه يحبك فيا لك من فتاة حمقاء! سيهرع جيلز الي فور اكتسابي لحريتي ثانية، وحتى لو تزوجك. فكري في كل ذلك عندما يضمك الى صدره.

استدارت فيكي وابتعدت لا تلوي على شيء. لكن جيلز لمحها قبل ان تتوارى عن الانظار. تقدم من ابيا متسائلاً:

- ماذا كانت تخبرك فيكي؟

- انها تريد الطلاق من زوجها وعقد قرانها عليك.

حملق في وجهها:

- هكذا! ويبدو ان قرارها اغضبك.

- يغضبني عقم التظاهر بهذه الخطوبة. وفيكي تعرف انها ادعاء لا اساس له من الصحة.

- اذن تزوجيني واثبتي مدى رعونتها.

حدجته ابيا قليلاً. كادت ان تبدي موافقتها، ثم ادركت خطر

خطوة كهذه. كيف تتوقع ان تشعر بالسعادة مع رجل تشغل باله امرأة اخرى!

رد جيلز بقوله:

- ما رأيك؟ الا توافقين على اقتراحي ونتزوج؟

- هل بلغ بك الجبن حداً لا تستطيع مقاومة فيكي الا بالتستر وراء ظهر امرأة اخرى؟

قال بهدوء:

- سبق لك النطق بهذه العبارة. وحفظتها غيباً. لكن ما فاتك انه يصعب علي الاختباء وراء قامتك.

- انت تعرف ما اقصد قوله.

- ان صراحتك تبدد كل شكوكي. لست مستعدة لانقاذي والحؤول دون تدمير حياتي.

- وما شأني انا؟ هل فقدت القدرة على مواجهة الحقائق والتغلب عليها؟

- تنقصني صلابة ارادتك الفولاذية!

وخيم عليهما الصمت. خرج جيلز استعداداً للتوجه الى المطار. وها هما يجلسان في الطائرة، حيث اختارت العجوز مقعداً قرب النافذة، ونادت ابيا لتبقى بجانبها، وتركت ابن اخيها وحيداً مقابلها، حيث دفن رأسه في كتاب يتصحفه الى ان حطت الطائرة.

شعرت ابيا بارتياح فائق عندما عادت الى المنزل في بومباي. لكنها فوجئت بالدعوات تنهال عليها وعلى جيلز من اصدقائه الذين علموا بخطوبتهما وارادوا احياء الحفلات والسهرات. سألته ذات مساء عابسة الوجه وهما يعودان من حفلة ليلية اقامها بعض زملائه من العلماء:

- لا ادري سبب اذاعتك النبأ بهذه السرعة. الا يؤنبك ضميرك وانت تتلقى ضيافة مزيفة؟

قال:

ـ نعم، ان ضميري يعذبني. ولكن كيف يمكننا خداع فيكي اذا تصرفنا تصرفاً مغايراً؟

استشاطت ابيا غضباً:

ـ لا شك انك نجحت في خداعها حتى الآن.

ترجلت من السيارة وهرعت نحو غرفتها واوصدت الباب وراءها. اخذت تفكر في مستقبلها. يبدو ان حياتها تزداد تعقيداً، ولا تعرف كيف تنقذ نفسها من هذا المأزق. ما الفائدة من البقاء في بومباي بعد الآن او العمل لدى الآنسة بيتمان؟ كيف تستمر في لعب هذا الدور، وتتظاهر انها خطيبة جيلز بدون جدوى؟ حقاً انه يحبها. ولكنه لم يفصح عن حبه لها، ويتلاعب بعواطفها وكأنها مجرد دمية من الدمى.

كانت غارقة في حيرتها، تلعق جراحها بلوعة وأسى عندما سمعت قرعاً على الباب. فتحته لترى جيلز منتصباً امامها. هتف:

ـ هل يمكنني قضاء بعض الوقت معك؟

ـ كلا. اعاني من صداع رهيب، واريد الايواء الى السرير.

مر اسبوع بكامله وابيا تعارك القدر الغاشم، وتؤدي دورها، منتظرة بزوغ يوم جديد يحمل اليها حلاً لورطتها.

اقتربت منها العجوز ذات مساء قائلة:

ـ ان جيلز رجل غريب. لماذا يتظاهر بالخطوبة ولا يحولها الى حقيقة واقعة؟

ـ لا يريد جيلز اكثر من التلاعب بعواطفي، ولن يلبث ان يستسلم لاغراء فيكي ويعود اليها. انها امرأة تجيد اصطياد الرجال.

ـ وماذا عنك انت؟ الست مستعدة لبذل جهد في سبيل الحصول عليه؟

خانتها جرأتها فلم تفصح عن حقيقة مشاعرها. قالت مراوغة:

ـ ابذل جهدي لمساعدة جيلز، ولكن عليه هو مقاومة فيكي والتغلب على اغرائها.

ـ تجنبت الاجابة على السؤال يا عزيزتي. انت تحبين ابن اخي، وعليك بذل جهدك للحصول عليه.

طافت ابتسامة باهتة فوق ثغر ابيا:

ـ ليست العواطف مجرد اشياء نبذل جهدنا فنحصل عليها. انا لا انوي اصطياد جيلز كأنه سمكة في نهر.

ـ لست متأكدة تماماً. ان الرجال يشبهون الأسماك في كثير من النواحي. المهم معرفة اختيار الطعم الملائم.

رن جرس الباب واطلت السيدة شاندريس. واخذت العجوز بيتمان تثرثر واياها حول الناس والاسواق، والتحف الفنية. وفجأة وضعت السيدة شاندريس فنجان الشاي جانباً وقالت:

ـ يقال ان زوج فيكي ينوي العودة وتركها هنا. ويبدو انها تفكر في الانضمام الى احدى الفرق الروحية. وهي كما يقول زوجها غارقة في التعاليم الروحية.

علقت الآنسة بيتمان:

ـ ان الايمان الروحي يستلزم استئصال الانانية وحب الذات، ولا اخال فيكي قادرة على ذلك.

ابتسمت السيدة شاندريس، واستأذنت بالانصراف والعودة الى منزلها. واغتنمت ابيا الفرصة لتطرح سؤالاً على العجوز طالما اقض مضجعها:

ـ ماذا سيفعل جيلز عندما نعود الى انكلترا؟ كنت تنتظرين رحيل فيكي قبل مغادرة الهند، اما الآن فيبدو انها ستمكث اشهراً هنا.

اجابت الآنسة بيتمان:

ـ اذن سنبقى هنا اشهراً. ان جيلز سعيد بوجودي هنا، واستطيع الكتابة في اي مكان من العالم. وسيرحب جداً ببقائك معنا...

قاطعتها ابيا:

ـ لا تتجاهلي سؤالي الأساسي. "اي متى سنغادر الهند؟ لا اريد الاستمرار في هذه الخطوبة. ساعدت جيلز بما فيه الكفاية، ولا

استطيع بذل اي جهد اضافي.

قالت العجوز بلهجة هادئة:

- اذا استطاعت فيكي ايقاعه في الشرك، فسوف تجعل حياته جحيماً لا يطاق.

- لا ارى اي مبرر لهذا القول. انه يحبها و...

- لا اعتقد انه يحبها.

حاولت ابيا ان تصدق كلام العجوز، ولكنها رفضت سيطرة آمالها على عقلها واخفاء الواقع:

- انه يحبها يا آنسة بيتمان. ولو كان الأمر عكس ذلك لما استخدمني كدرع يحمي به نفسه. اصبحت مرهقة الاعصاب. اريد مغادرة الهند. واذا كنت تودين البقاء، فسأدبر امري بنفسي.

- حتى ولو ادى قرارك الى الغاء عملك معي؟

قالت ابيا بحزن بالغ:

- نعم.

تنهدت العجوز:

- حسناً. اتصلي بالخطوط الجوية واحجزي لنا مقعدين يوم الاثنين. وهكذا نرحل بعد اربعة ايام. هل توافقين؟

وهكذا رفعت ابيا سماعة الهاتف، وقامت بحجز مقعدين كما اشارت عليها الآنسة بيتمان.

والآن بعد ان اتخذت قرارها شعرت بفراغ قاتل في داخلها. طافت بنظرها حولها وكأنها تودع المنزل الذي الفته، وبثت جدرانه آلامها واحلامها، وأسرار قلبها.

هتفت العجوز:

- سأمضي الى غرفتي. اراك وقت العشاء.

وتوجهت ابيا الى غرفتها هي الأخرى. استحمت، ولفت جسمها بمنشفة كبيرة، وجلست امام المرآة تجفف شعرها وتسرحه. سمعت وقع اقدام خارج الغرفة. فتح جيلز الباب ودخل فجأة بدون

استئذان. اذهلها تصرفه، فاستدارت محتجة:

- كيف تدخل غرفتي هكذا؟ ارجوك ان تنتظر حتى اكون ارتديت ملابسي.

علق:

- افضل ان اراك كما انت. لا تجزعي. لن يصيبك اي مكروه رغم انك جذابة جداً. اريد الآن ان اوضح لك كل شيء.

نظرت الى المرآة، فلاح بقامته الفارعة، قالت:

- انت دائماً تحاول الايضاح والشرح. انتهى كل شيء. انا في طريقي الى انكلترا مع الآنسة بيتمان.

دنا منها بحذر:

- لن ادعك. هذه خطوة متهورة وتنذر بعواقب وخيمة.

قالت ساخرة:

- لا تيأس، قررت فيكي الطلاق من زوجها، وستبقى في الهند لتهرع وترتمي في احضانها.

هز رأسه:

- مهلاً. لا تصدري احكاماً متسرعة. ان فيكي انسانة تافهة، وافضل العيش وحيداً كل حياتي بدل ان اتزوجها.

استفزته قائلة:

- الهذا السبب كنت تجلس معها في ذلك المطعم، وتغازلها وتتودد اليها؟ وماذا عن عناقك لها في الكهف؟

مر بيده بلطف فوق شعرها:

- هي التي طلبت مني الاجتماع بها في ذلك المطعم المشؤوم. قالت انها نادمة على ما اقترفته من اخطاء، وتريد التكفير عنها. ترددت في الذهاب، ثم قررت ان اساعدها قدر الامكان. كان لقاء عابراً، قعدت مكتوف الايدي واصغيت الى ارائها التافهة وانصرفت.

علقت:

- ثم بحثت الموضوع بينك وبين نفسك، فقررت الشفقة عليها وتلبية رغباتها...

اعترض:

- دعيني اكمل. اما في الكهف، فهي التي فرضت نفسها علي. وجرى كل شيء في لحظة قصيرة. ولو تمهلت قليلاً لكنت رأيت هاتين الذراعين تدفعانها جانباً.

صمتت ابيا قليلاً. هل هو صادق؟ انتظرت منه الاستفاضة اكثر، والتعبير عن مشاعره ازاءها.

وضع يده في جيبه، وانحنى صوبها:

- اصغي الي جيداً يا ابيا. انا احبك واريد الزواج منك.

نهضت واقفة وابتعدت عنه:

- ومن اين اتى هذا الحب الفجائي؟

تابع:

- احببتك منذ ان وقع نظري عليك. رأيتك الفتاة المثالية التي طالما حلمت بها. انك نقيض فيكي تماماً، وهذا ما زاد تعلقي بك. آه يا ابيا عانيت كثيراً، وحاولت اخفاء ما يضج في صدري بالمزاح والنكت. اما الآن فها انا اعلن لك عن حبي، وارجو ان اجد تجاوباً منك.

رمقته قليلاً، واغرورقت عيناها بالدموع. طأطأت رأسها حياء لا تدري ما تقول. جذبها نحوه وطوقها بذراعيه. وللمرة الأولى شعرت ابيا بالاطمئنان التام، وخالت ان قلبها يقفز في صدرها طرباً. كانت لحظات عذبة، ظلت تحتفظ بذكراها في اوقات عديدة من حياتها. ما اجمل الحب، وما اروعه! تمتمت قائلة:

- وانا احبك. واقبل الزواج منك. هيا بنا نزف النبأ الى عمتك. ستطير فرحاً.

همس في اذنها:

- يمكنها الانتظار. ارتدي اجمل ملابسك، ثم نفاجئها بعد ان اقنعك تماماً بمدى حبي لك.

www.elromancia.com